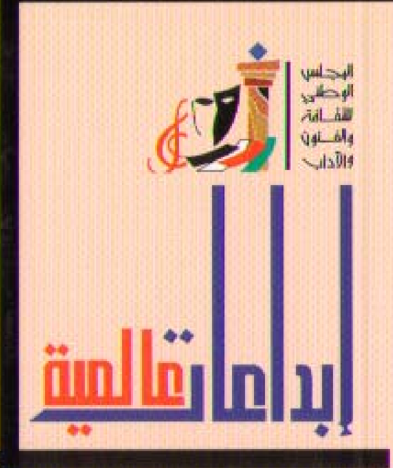


اذهب حيث يقودك قلبك

فبراير 2014

399

رواية

تأليف: سوزانا تامارو
ترجمة: د. أماني فوزي حبشي
مراجعة: د. أيمن عبدالحميد الشيوي

اذهب حيث يقودك قلبك



اذهب حيث يقودك قلبك

رواية

تـــألـــيـــف: سوزانا تامارو

تـــرجـــمـــة: د. أماني فوزي حبشي

مـــراجـــعـــة: د. أيمن عبدالحميد الشيوي



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٠٥٨
ردمك: ٢-٤١٢-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨

• اذهب
حيث يقودك قلبك



Susanna Tamaro

Va' dove ti porta il cuore

(1994)

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 399

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

مقدمة

أثناء تجولها وحيدة في منزلها، ومع هبوب الرياح الباردة في الخارج تعلن عن بداية الخريف، الذي بدأ تدريجيا يطفئ ألوان الحديقة الزاهية، تقرر سيدة مسنة، نظرا لإصابتها بمرض خطير، أن تكتب خطابا طويلا إلى حفيدتها التي تعيش في أمريكا للدراسة، تكتبه كيوميات، ولكنه يحتوي في مضمونه ليس فقط على سيرتها الذاتية، بل على خلاصة خبرتها ورؤيتها للحياة.

إنها محاولة لقول ما لم يُقل، محاولة لتفسير الغموض والتوتر في العلاقة، خطاب حب تحاول من خلاله إعادة أواصر علاقة انهارت وتسبب في تدهورها صراع الأجيال وصعوبة التفهم والتقارب بين عقلية في الثمانين وأخرى بدأت لتوها سن المراهقة.

وهكذا بالتمرد على قانون الطبقة البرجوازية الثابت، الذي يفرض كثيرا من الحواجز في العلاقات، ويفرض على الأشخاص إخفاء كثير من الحقائق وعدم مواجهة المشاعر، تأخذ الجدة الورقة والقلم لتقوم بأول عمل شجاع في حياتها، بأن تحب وتفتح قلبها.

«إذا كنت قد فهمت حينئذ أن أولى صفات الحب هي القوة»، تعترف في لحظة ما «لكانت الأحداث قد صارت بشكل مختلف».

تحكي الجدة عن طفولتها والتربية القاسية التي عانت فيها من قمع المشاعر، سواء في منزلها أو في مدرسة الراهبات

التـي التحقت بهـا. تحكي عـن طفولة اتسـمت بالتحفظات والاهتمـام بالمظاهـر، والتـي قادتها فيما بعد إلـى الزواج من رجـل ممـل وعـادي، وكيـف أدى ذلـك فيمـا بعد إلـى «علاقة صـراع» بـين ابنتها الوحيـدة، ثم الموت المأسـاوي لتلك الابنة، الموت الذي تشـعر بأنها مسؤولة عنه، وهي لا تخفي أي شيء، حتى إن بدت في ذلك كله قاسية وعديمة الرحمة، مع نفسها قبل كل شيء.

لكـن ليس غرضهـا مـن هـذا كله هو أن تفـضح نفسـها، ولا حتـى أن تريـح ضميرهـا؛ ولكنهـا بالتحـدث عـن صـدق المشـاعر وبإضفائهـا الأسـماء الحقيقيـة للأشـياء، مـن دون تزييـف، أو تغطيتهـا بأخلاقيـات مفتعلة، تريـد الجدة، التي عاشـت أحداث قرن من التاريخ، وشـهدت تغييرات جذرية في العـادات وانقلابـا في القيـم، تريد فقط أن تُذكّـر حفيدتها - بـكل الحـب - أنه لا يوجد عدو أسـوأ من أنفسـنا، وما نخفيه فـي قلوبنـا، وأن الرحلـة الوحيـدة التي تسـتحق أن تقوم بها هـي تلـك التي تهدف للوصـول إلى عمق ذواتنـا، إلى البحث عـن الصـوت الأصلي الموجـود داخـل كل منا، والـذي يحميه ويحفظه بداخله.

يتميـز هذا الخطـاب الطويل بالقدرة على تأريخ المشـاعر بعذوبة، فتصف شـعورها بالتقدم فـي العمر بالعبارة التالية: إن فكـرة القـدر تأتي مـع التقدم في السـن، عندما يكون المرء شـابا لا يفكـر في القدر، فكل شـيء يحدث يـراه ثمرا لإرادته الخاصة.. إن اكتشاف «القدر» يحدث في سن الأربعين، عندئذ

تبدئـين فـي إدراك أن الأشـياء لا تتوقـف عليك أنـت فقط.. وحتى ترى القدر بحقيقته الكاملة يجب أن تمر بضعة أعوام أخـرى. وفي سـن السـبعين، عندما ترين شـيئا لـم تريه من قبل: إن الطريق الذي اجتزته لم يكن طريقا مسـتقيما لكنه مملـوء بالمفترقـات، في كل خطوة كان هنـاك سـهم يشـير إلى اتجاه مختلف، ومن هنا يبدأ طريق ومن هناك طريق... ربما ابتلعتـك إحدى تلـك الطرق المنحرفة من دون أن تدركي، ولم تري الأخرى وتلك التي أهملتها لم تعرفي إلى أين كان يمكن أن تقـودك، إذا كان ذلـك المكان سـيكون أفضل أم أسـوأ، وعلى الرغـم مـن أنك لا تعرفين هذا، فإنك مـع ذلك تندمين. فقد كان يمكنك عمل شـيء ولم تفعليه، لقد عدت إلى الوراء بدلا من التقدم إلى الأمام.

الحـوار المفتقد بين الأجيال.. المشـاعر التي تراود المرء في مراحـل حياته المختلفة وكيف يمكـن التعرف إليها.. المحاولة الصادقة للبحث عن ذلك العمق الذي يمكن أن يقود حياة كل منـا.. أحداث الحياة المختلفة التـي تعصف بنا ونحن نحاول أن نتحسس طريقنا.. محاولة كل منا العثور على طريقه في الحياة الاجتماعية والتخبط بين البحث عن التفوق العلمي والتمسك بالقيم الإنسانية، وبين أن يلهث المرء خلف شهواته ومتعتـه فـي النظـر كيف يؤثر ذلـك فيمن حولـه.. العلاقات الإنسـانية التـي أصبحـت جافـة جـدا وخالية مـن كل طرق التعبير الإنسانية والتي تؤثر فيما بعد في تكوين الشخصية.

تلك هي الأفكار التي تدعونا الكاتبة سوزانا تامارو إلى التأمل

فيها من خلال الرواية مستخدمة لغة بسيطة ومشاعر عميقة.

هل نحن أمام نص نسوي إذن؟

منذ السطور الأولى يتضح لنا هذا الأمر، فالرواية التي تحكي حياة الجدة وما تعرضت له من قمع، مرتبط إلى حد كبير بطبقتها الاجتماعية، ويُنفذ على يد امرأة أخرى، أمها أحيانا والراهبة في المدرسة، أحيانا أخرى، إلى معاناة من نوع آخر سواء مع الأب أو الزوج، تجذبنا معها في عالمها الخاص لتنقل إلينا كل تلك المشاعر والرؤية الأنثوية الخاصة بحياتها، بل لمن حولها والأجيال التي تلت جيلها.

عن رؤية مثل هذه يمكن أن نستعير وصف الرائعة لطيفة الزيات لأعمالها الإبداعية التي تحمل بصمتها كامرأة فتقول:

«أما أعمالي الإبداعية فتحمل بصمتي كامرأة، كهذا النتاج التاريخي الاجتماعي لمجتمع معين في فترة من فترات تطوره، وتحمل بصمتي كهذه المرأة الفريدة التي هي أنا. في الأعمال الإبداعية أكتشف رؤيتي للحياة وأبلورها، أخلع أقنعتي، فلا أبقي شيئا سوى وجه الحقيقة العاري. أبدد أوهامي عن الذات ستارا بعد ستار، أعلو على توجساتي ومخاوفي، أحس، أجرؤ، أنطق صدقا، ولو على ذاتي، أكون المرأة الخانقة المقدامة، الضعيفة القوية، الهشة الصلبة، المتمزقة بين العقل والوجدان، التي هي أنا، كتاباتي الإبداعية تعرفني وتعرفني» (من شهادة مبدعة، أدب ونقد، نوفمبر ١٩٩٦).

المترجمة: أماني حبشي

آه يا شيفا، ما هي حقيقتك؟

ما هذا الكون المملوء بالمفاجآت؟

ما الذي يُكون البذرة؟

ما هو مركز عجلة الكون؟

ما هي تلك الحياة بعيدا عن الشكل

الذي يتخلل الأشكال كلها؟

كيف يمكننا الدخول إليها بجملتها،

بعيدا عن المكان وعن الزمن،

بعيدا عن الأسماء والمميزات؟

أجب عن شكوكي!

نص مقدس من عقيدة شيفا الكاشميري (*)

(*) شيفا، هو الإله الثالث الهندوكي، وعقيدة شيفا من أشد العقائد شيوعا في الهندوكية الحديثة، ويعني اسمه في السنسكريتية الميمون أو البشير (معجم المصطلحات الثقافية لثروت عكاشة) - [المترجم].

أوبيتشينا، 16 نوفمبر 1992

لقد رحلتِ منذ شهرين، ومنذ شهرين لا أعرف أي أخبار عنك، سوى بطاقة بريدية أخبرتني فيها أنك مازلت على قيد الحياة.

هذا الصباح، وقفت في الحديقة طويلا أمام زهرتك، على الرغم من أننا في منتصف الخريف، فإنها بارزة بلونها الأرجواني، تقف وحيدة ومتعالية على بقية النباتات التي ذبلت بالفعل.

هل تتذكرين عندما زرعناها؟ كنت في العاشرة من العمر وقد انتهيت لتوك من قراءة رواية «الأمير الصغير» التي أهديتها لك مكافأة على نجاحك، وسحرتك القصة بشدة. من بين كل شخصيات القصة، كانت الوردة والثعلب هما المفضلان لديك، لم يكن يعجبك نبات التبلدى، والثعبان، والطيار، ولا كل الأشخاص الفارغين والمعتدّين برأيهم والذين كانوا يتجولون جالسين على كواكبهم الصغيرة.

في صباح أحد الأيام وبينما كنا نتناول طعام الإفطار قلتِ: «أريد زهرة». وأمام اعتراضاتي بأن لدينا الكثير من الأزهار أجبتِ: «أريد واحدة تكون لي أنا وحدي، أريد أن أعتني بها، أن أُجعلها تكبر».

وبالطبع مع الزهرة كنت تريدين ثعلبا أيضا. وبخبث الأطفال

وضعت الأمنية البسيطة قبل تلك التي تكاد تكون مستحيلة. كيف يمكنني أن أرفض طلبك للثعلب بعد أن كنت سمحت لك بالزهرة؟ حول هذا الأمر تناقشنا طويلا، وفي النهاية اتفقنا على اقتناء كلب.

وفي الليلة التي سبقت ذهابنا لشرائه لم يغمض لك جفن. كنت تقرعين على بابي كل نصف ساعة وكنت تقولين: «لا أستطيع النوم». في السابعة من صباح اليوم التالي كنت قد انتهيت من تناول فطورك، واغتسلت وارتديت ملابسك، وجلست فوق المقعد في انتظاري مرتدية معطفك. وفي الثامنة والنصف كنا أمام مدخل متجر الكلاب، كان لم يزل مغلقا.

أخذتي ترددين وأنت تنظرين من بين قضبان الأقفاص: «كيف لي أن أعرف من سيكون كلبي؟» وكان في صوتك قلق شديد. أخذت أطمئنك وأقول لك: لا تقلقي، تذكري كيف استطاع الأمير الصغير ترويض الثعلب.

وعدنا إلى متجر الكلاب بعد ذلك ثلاث مرات متتالية، فقد كان هناك أكثر من مائتي جرو وأردت رؤيتها كلها.

كنت تتوقفين أمام كل قفص، وتقفين هناك في سكون، مستغرقة في التفكير بلا مبالاة ظاهرة. وفي أثناء ذلك كانت الكلاب تلقي بنفسها جميعا ضد الشبكة وتنبح، وتقفز وهي تحاول بمخالبها أن تنزع السلاسل. وكانت المسؤولة عن المتجر تسير معنا. ونظرا إلى أنها كانت تعتقد أنك طفلة مثل كل الأخريات، كانت تطلعك على النماذج الأكثر جمالا لتشجيعك. وكانت تقول لك: «انظري لهذا الكوكو»، أو: «ما رأيك في هذا

النــوع؟» وكانــت كل إجاباتك عبــارة عن نوع مــن الهمهمة، وكنت تستكملين سيرك دون الاستماع إليها.

قابلنــا بــوك في اليوم الثالــث من طريق الآلام هــذا. كان في أحــد الصناديــق الخلفية، تلــك التي توضــع فيها الــكلاب التي تحتاج إلى نقاهة.

عندمــا وصلنا إلى القفص، وبدلا من أن يهرع تجاهنا مع كل الكلاب الأخرى، مكث في مكانه من دون حتى أن يرفع رأسه، قلت وأنت تشــيرين إليه بإصبعك: «هذا! أريــد هذا الكلب». أتتذكرين وجه السيدة المندهش؟ لم تستطع أن تفهم كيف يمكن أن ترغبي في اقتناء هذا الكلب الصغير الهجين.

بالفعــل، فبــوك لم يكن قصير القامة فقــط، ولكن في قصره هــذا كان يحــوي كل النوعيات الموجودة فــي العالم: رأس الثعلب، أذنــي كلب الصيــد الطريــة والمنخفضة، الأرجل الرشــيقة كتلك التــي للدهشــند، الذيــل الناعــم والفراء الأســود لثعلــب صغير مثــل الدويرمان. عندما ذهبنا إلى المكتب المختص لنوقع الأوراق المطلوبة، روت لنا الموظفة قصته، كان قد ألقي من سيارة مسرعة في بداية الصيف، وجرح بشدة ولهذا السبب تتدلى إحدى قدميه الأماميتين كأنها يابسة.

يقف بوك الآن هنا بجواري، وبينما أكتب يتنهد من حين إلى آخــر ويقرب طرف أنفه من قدمي. فــإن أنفه وأذنيه قد أصبحت الآن تقريبــا بيضــاء ومنذ فتــرة ظهر فوق عينيه ذلــك «الخمار» الذي يظهر على أعين الكلاب عندما يتقدم بها الســن. وبمجرد رؤيته أشــعر بالتأثر الشديد، كما لو كان يوجد هنا بجانبي جزء

منـك، أكثـر جزء أحبه، ذلك الجزء الذي - منذ سـنوات بعيدة - استطاع أن يختار من بين 200 صنف في متجر الكلاب، أكثرهم تعاسة وقبحا.

فـي هـذه الشـهور وأنا أتجـول وحيـدة بداخل المنـزل، تبددت سـنوات عـدم التفاهـم والعصبية بيننـا، وبقيت حولـي ذكرياتي معـك وأنت طفلة، مثل تلك الخاصة بالجرو الضعيف والشـارد. لتلك الطفلة أكتب الآن وليس للإنسـانة المندفعة والمتكبرة التي ظهرت في الفترة الأخيرة.

لقـد اقترحـت الزهـرة عليّ ذلك، هـذا الصبـاح عندما مررت بالقرب منها قالت لي: «خذي ورقة واكتبي لها خطابا».

أعلـم أنـه مـن بـين مـا اتفقنا عليـه لحظـة رحيلـك أننا لن نتكاتب، وقد احترمت هذا على الرغم من صعوبته. تلك الأسطر لن تطير أبدا لتلحق بك في أمريكا. ولكن في حالة عدم وجودي عند عودتك، ستكون هنا بانتظارك.

لماذا أقـول هذا؟ لأنه منذ أقل من شـهر - ولأول مرة في حياتي - شـعرت بألـم رهيب. لهـذا أعلم الآن أن من بين الأشـياء الممكنة، يوجد أيضا هذا الاحتمال، ففي خلال ستة أو سبعة أشهر يمكن ألا أكون هنا لأفتح لك الباب، لأضمك بين ذراعي.

قالت لي إحدى صديقاتي منذ فترة إنه بالنسبة إلى الأشخاص الذيـن لـم يعانوا مطلقـا من أي مرض، عندمـا يصيبهم المرض يظهر بصورة سريعة وعنيفة.

وهـذا ما حـدث لي تماما: في صباح أحد الأيام، بينما أسـقي الزهرة، أطفأ أحدهم الأنوار فجأة. ولو لم تكن السيدة رازمان قد

رأتنـي على الفور عبر السـياج الذي يفصل بـين حديقتينا، فأنا شبه متأكدة أنك في هذه اللحظة كنت ستكونين يتيمة بالفعل.

يتيمـة؟ هـل هذا ما يقال عندما تموت الجدة؟ لسـت متأكدة بالمـرة. ربمـا يعتبـر الأجـداد مجرد إضافـات حتى أنـه لا يوجد احتيـاج لإطـلاق لقـب معـين في حـال فقدهـم. فبالنسـبة إلى الأجـداد لا يقـال لا أيتـام ولا أرامـل. فلحكمة طبيعيـة يتركون هكـذا علـى الطريق، هكـذا كما يحدث أحيانا أن ينسـى إنسـان ويترك شمسيته في الطريق.

عندما اسـتيقظت في المستشـفى لم أكن أتذكر أي شيء على الإطلاق. وكان لديّ شـعور - وعيناي ما زالتا مغلقتين - بأنه قد أصبح لدي شاريان طويلان ورفيعان، مثل شوارب القطط.

وبمجرد أن فتحت عينيّ أدركت أنهما أنبوبتان من البلاستيك، كانتا تخرجان من أنفي وتمران فوق شفتي. ولم تكن حولي سوى آلات غريبة. وبعد بضعة أيام تم نقلي إلى غرفة عادية، حيث كان هنـاك بالفعل شـخصان آخـران. وبينما أنا هناك جـاء لزيارتي السـيد رازمـان ومعـه زوجته. قال لـي: «إنك مازلـت حية بفضل كلبك الذي أخذ ينبح كالمجنون».

وعندمـا بـدأت التحـرك بالفعـل دخـل إلـى الغرفـة طبيـب شـاب سـبق أن رأيتـه مـرات أخـرى أثنـاء الكشـف. أخـذ مقعدا وجلس بالقرب من فراشـي وقال: «نظـرا إلى أنه ليس لك أقارب يسـتطيعون اتخـاذ القرارات بـدلا منك، يجـب أن أتحدث معك من دون وسـيط وبصراحة». كان يتحدث، وفي أثناء حديثه كنت أنظر إليه بدلا من أن أستمع له. فقد كانت شفتاه رفيعتين، وكما

تعرفين، لم أحب مطلقا الأشخاص ذوي الشفاه الرفيعة. وكان رأيه أن حالتي الصحية خطيرة جدا، ولا تسمح لي بالعودة إلى المنزل وذكر لي أسماء أكثر من دار للمسنين بها رعاية طبية، حيث يمكنني الذهاب لأعيش هناك. وربما يكون قد أدرك شيئا من تعبيرات وجهي إذ أضاف: «لا تضعي في مخيلتك تلك الملاجئ القديمة، كل شيء قد تغير الآن، فهناك حجرات مضيئة وحولها حدائق واسعة يمكنك التجول فيها»، عندئذ قلت له: «أتعرف سكان الإسكيمو؟».

أجابني وهو ينهض: «بالطبع أعرفهم».

«أنا أيضا أريد أن أموت مثلهم». ونظرا إلى أنه بدا لي كأنه لم يفهم، أضفت: «أفضل أن أقع ووجهي بين اليقطين في حديقتي بدلا من أن أعيش عاما آخر وأنا محبوسة فوق فراش حجرة حوائطها بيضاء». عند هذه اللحظة كان قد وصل إلى الباب، ابتسم بطريقة خبيثة، وقال قبل أن يختفي: «الكثيرون يقولون هذا، ولكنهم في اللحظة الأخيرة، يهرعون جميعا للعلاج وهم يرتجفون كالأوراق.

وبعد ثلاثة أيام وقعت على ورقة سخيفة صرحت فيها عن مسؤوليتي الكاملة عن وفاتي. وسلمت الورقة لممرضة شابة، رأسها صغير وترتدي قرطا ضخما جدا من الذهب، وتوجهت وأنا أحمل أشيائي القليلة معي بداخل حقيبة من البلاستيك إلى موقف سيارات التاكسي.

وبمجرد أن رآني بوك عند البوابة أخذ يجري ويدور كالمجنون، ثم ليؤكد سعادته، سحق وهو ينبح اثنين أو ثلاثة من نباتات

الأوركيد. ولأول مرة لم أستطع زجره. وعندما اقترب مني وأنفه متسخ من الطين قلت له: «هل رأيت يا صديقي العجوز؟ ها قد عدنا معا مرة أخرى»، ثم ربتّ على رأسه خلف أذنيه...

وفي الأيام التالية لم أنجز سوى القليل جدا. فبعد الحادث لم يعد الجزء الأيسر في جسدي يستجيب لأوامري مثلما كان يحدث. خصوصا أن يدي أصبحت بطيئة جدا...

ونظرا إلى أن انتصارها يغضبني، فأنا أفعل المستحيل لأستخدمها أكثر من الأخرى، ولقد عقدت شريطة وردية فوق معصمي، وهكذا في كل مرة يجب فيها أن آخذ شيئا أتذكر وأستخدم يدي اليسرى بدلا من اليمنى. فطالما يعمل الجسد لا يتصور المرء كيف يمكن أن يصبح عدوا لدودا له يوما ما، ولكن إذا استسلم الإنسان لمعارضته ولو للحظة واحدة، يفقد المعركة تماما.

على كل حال، فنظرا إلى قلة تحكمي الذاتي، فقد أعطيت نسخة من المفاتيح لزوجة والتر، وهي التي تمر كل يوم لزيارتي ولتحضر لي ما أحتاجه.

وفي أثناء تجولي بين المنزل والحديقة أصبح التفكير فيك مُلحا، استحواذ حقيقي. أكثر من مرة وصلت إلى التليفون ورفعته بنية أن أرسل لك تلغرافا. ولكنني في كل مرة، وبمجرد أن يجيبني عامل السنترال، كنت أقرر ألا أفعل ذلك.

في المساء، وأنا أجلس على مقعدي الوثير - الفراغ أمامي والصمت من حولي - كنت أسأل نفسي ما أفضل شيء. ما أفضل شيء بالنسبة إليك - طبعا - وليس بالنسبة إليّ.

بالنسبة إلي من المؤكد أنه سيكون أجمل جدا إذا ذهبت لأكون بجوارك. وأنا متأكدة أنني إذا كنت قد أخبرتك بمرضي لكنت ستقطعين إقامتك في أمريكا على الفور وتهرعين إلى هنا. وماذا بعد؟

ربما كنت سأعيش لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام بعد ذلك، ربما فوق مقعد متحرك، وربما أيضا فاقدة قواي العقلية. وأنت - لشعورك بالواجب - كنت ستمكثين لمساعدتي. كنت ستفعلين ذلك بإخلاص ولكن إخلاصك هذا كان سيتحول بمرور الوقت إلى غضب وكراهية.

كراهية لأن السنوات كانت ستمر وأنت تضيعين شبابك، لأن حبي - بتأثير عكسي - كان سيحول مسار حياتك إلى طريق مسدود. هكذا كان يردده بداخلي الصوت الذي كان يمنعني من الاتصال بك.

وبمجرد أن أقرر أن معه الحق، يظهر على الفور في عقلي صوت مخالف، كان يسألني عما يمكن أن يحدث لك إذا فتحت الباب وبدلا من أن تجديني أنا وبوك نستقبلك بحفاوة، وجدت المنزل فارغا، مهجورا منذ فترة؟ هل يوجد شيء أفظع من عودة لا يمكن أن تكتمل؟ إذا وصلك تلغراف به نبأ وفاتي، ألن تفكري في خيانة ما؟ في انتقام ما؟

فنظرا إلى أنك في الأشهر الأخيرة لم تكوني حسنة السلوك معي ها أنا أرحل من دون أن أخبرك بأي شيء. وهذا لن يصبح مجرد تأثير عكسي ولكن صدمة قوية، وأعتقد أنه لن يكون من الهين أن تعيشي بفكرة مثل هذه. أي إن ما كنت ترغبين في

قوله لإنسان عزيز عليك سيبقى دائما بداخلك وهذا الإنسان هناك، تحت الأرض، ولن تتمكني من النظر إليه في عينيه، ومن احتضانه، ومن أن تقولي له ما لم تقوليه مطلقا.

وأخذت الأيام تمر وأنا لا أصل إلى قرار معين. ثم استمعت إلى اقتراح الزهرة هذا الصباح؟ اكتبي لها خطابا، يوميات صغيرة لما يحدث لك يمكن أن ترافقها في حياتها.

وهكذا، هآنذا في المطبخ، وفي إحدى كراساتك القديمة الموضوعة أمامي أقرض القلم مثل طفل يجد صعوبة في إنجاز واجباته.

هل هي وصية؟ ليس تماما، لكنها بالأخص شيء يتبعك على مدار السنين، شيء يمكنك قراءته كلما احتجت لوجودي بقربك. لا تخشي شيئا، لا أريد أن أعظك ولا أن أحزنك، أريد فقط أن أتحدث قليلا بالألفة التي كانت تربطنا يوما ما، والتي فقدناها في الفترة الأخيرة. ونظرا إلى أنني عشت طويلا وأنني تركت خلفي أشخاصا كثيرين، أعلم الآن أن الأموات يثقلون ليس فقط لغيابهم، ولكن بالأحرى بسبب كل ما لم يقل بيننا وبينهم.

لقد وجدت نفسي أقوم بدور والدتك في عمر لا يمكن أن يقوم المرء فيه إلا بدور الجد.

كان لهذا فوائد عديدة. فوائد لك، لأن جدة تقوم بدور الأم تكون أكثر يقظة وطيبة من أم تقوم بدور الأم، فوائد لي أنا أيضا، إذ إنه بدلا من أن تصيبني البلاهة كمن هن في سني وأقضي وقتي بين لعب الورق والتردد على حفلات الشاي في ميعاد منتظم في أحد النوادي، وجدت نفسي وقد انجذبت في تيار

الحياة من جديد. ولكن، في لحظة معينة كُسر شيء ما. ولم يكن الخطأ خطئي أو خطأك، لم تكن سوى قوانين الطبيعة.

إن الطفولة والشيخوخة متشابهتان، ففي كلتا الحالتين، ولأسباب متنوعة، يكون المرء أعزل لم يشارك بعد - أو انتهى من المشاركة - في الحياة العملية وهذا يسمح له بأن يعيش بنوع من المشاعر من دون أي ترتيب، حياة تلقائية.

ولكن أثناء فترة المراهقة تتكون درع غير مرئية حول أجسادنا. تتكون خلال فترة المراهقة وتستمر في اكتساب كثافتها في فترة النضج كلها. ويكون تطور نموها مثلما يحدث للآلئ، كلما كان الجرح كبيرا وعميقا ازدادت قوة الدرع التي تتكون حولها. ومع مرور الوقت، وكالثوب الذي تم ارتداؤه لفترة طويلة جدا، يبدأ في أن يبلى في المناطق الأكثر احتكاكا، ثم تبدأ خيوطه في الظهور، وفجأة عند أي حركة غير محسوسة، يتمزق.

في البداية لا تدركين أي شيء، مقتنعة تماما بأن الدرع مازالت تحيط بك بالكامل، حتى يأتي يوم، وفجأة، وأمام شيء غبي، ومن دون أن تعرفي السبب تنهارين في البكاء مثل الأطفال وهذا ما أقصده تماما عندما أقول لك إنه قد أقيم بيننا حاجز طبيعي.

ففي الوقت الذي بدأت فيه درعك تتكون، بدأت درعي تتساقط. لم يكن بمقدورك تحمل دموعي، ولم أستطع تحمل قسوتك المفاجئة. على الرغم من أنني كنت معدة لواقع تغير طباعك في سن المراهقة، فإنه بمجرد حدوث التغيير كان من العسير عليّ تحمله. فجأة كان هناك شخص جديد أمامي، ولم أعد أعرف كيف أتعامل مع هذا الشخص.

فـي فراشـي، في المسـاء، فـي اللحظـة التي كنت أجمـع فيها أفـكاري كنـت سـعيدة بما يحدث لـك، كنت أقول لنفسـي إن من يعيش سن المراهقة من دون أن يصاب بأذى لن يصبح أبدا إنسانا كبيرا بالفعل.

ولكـن فِـي الصـباح بمـجـرد أن تصـفعي أول بـاب في وجهي، يا للإحباط ، كم كنت أشعر بالرغبة في البكاء!

وكانـت الطاقة اللازمة لأتحمل عنـادك أصعب من أن أجدها في أي مكان. إذا وصلتِ إلى سـن الثمانين سـتدركين أنه في تلك المرحلة يشعر المرء كأنه كأوراق الأشجار في آخر شهر سبتمبر.

يبقى ضوء النهار قليلا، وتبدأ الشجرة في استدعاء كل المواد الغذائيـة، وتبـدأ عملية امتصـاص الأزوت والكلورفيل والبروتين مـن الجذع ومعها يذهب أيضا اللون الأخضر، والمرونة. وتسـتمر الأوراق فـي التعلـق فـي مكانهـا هنـاك، ولكنها تعلـم أنها ليس أمامها سوى وقت قصير.

وهكذا تبدأ الأوراق القريبة منك تسقط، الواحدة تلو الأخرى، وفي أثناء مشـاهدتك لسقوطها، تعيشين في رعب أن تزداد حدة الرياح. بالنسـبة إليّ كانت الرياح هـي أنت، وبمراهقتك المملوءة بالحيوية المشاغبة.

هـل حدث وأدركت ذلـك من قبل يا حبيبتي؟ لقد عشـنا فوق الشجرة نفسها ولكن كلا منا كان في فصل مختلف.

أتذكـر الآن يـوم رحيلـك، لقـد كنا غايـة في العصبيـة أليس كذلـك؟ لـم ترغبي فـي أن أصحبك إلـى المطار، وعلى كل شـيء كنـت أحـاول أن أنبهك إليه كنـت تجيبين: «سـأذهب إلى أمريكا،

وليس إلى الصحراء». وعلى الباب، عندما صرخت لك بصوتي الحاد المقيت: «اعتني بنفسك»، قلت لي من دون أن تلتفتي إليّ مصافحة: «اعتني ببوك وبوردتي».

أتعلمين، في تلك اللحظة شعرت بالإحباط من هذه المصافحة. كعجوز شاعرية مثلي كنت أتوقع شيئا مختلفا وعاديا مثل قبلة أو عبارة حميمة. فقط في المساء عندما لم أستطع النوم وكنت أتجول وأنا أرتدي ملابس النوم في المنزل الخاوي، أدركت أن الاعتناء ببوك وبالوردة كان يعني الاعتناء بالجزء المتبقي منك الذي مازال يعيش بجواري، الجزء السعيد منك. وأدركت أيضا أنه وراء ما حدث لم يكن هناك نقص في المشاعر ولكنه كان أقصى اضطراب لشخص على وشك البكاء. إنه الدرع التي حدثتك عنها منذ قليل. إنك ترتدينها وهي ضيقة جدا إلى درجة أنك لا تستطيعين التنفس. أتتذكرين ما كنت أقوله لك في الفترة الأخيرة؟ إن الدموع التي لا تخرج تتراكم فوق القلب، وبمرور الوقت تكوّنت فوقه قشرة وتشله مثلما تفعل الرواسب الجيرية في تروس الغسالة الآلية.

أعلم أن أمثلتي المستوحاة من عالم المطبخ تثير ضيقك بدلا من أن تضحكك. فلتهدئي، إن كلا منا يستخرج الإيحاءات من العالم الذي يعرفه معرفة جيدة.

والآن يجب أن أتركك. إن بوك يتنهد وينظر إليّ نظرة توسل. فقد ظهر نظام الطبيعة لديه هو أيضا. ففي كل الفصول، يعرف ساعة تناول الحساء بدقة ساعة سويسرية.

18 نوفمبر

هذا المساء تساقطت الأمطار بغزارة. وكانت عنيفة جدا حتى أنني استيقظت أكثر من مرة بسبب صخب سقوطها على خشب النوافذ.

وهذا الصباح، عندما فتحت عينيّ موقنة أن الجو مازال سيئا، تدثرت فترة طويلة تحت الغطاء. كم تتغير الأحوال بمرور السنين!

في سنك كنت مثل السنجاب، إذا لم يوقظني أحد كان يمكنني النوم حتى ساعة الغداء. أما الآن، فدائما أستيقظ قبل طلوع الفجر. وهكذا تصبح الأيام طويلة، بلا نهاية.

هناك قسوة في كل هذا، أليس كذلك؟ إن ساعات النهار هي أكثر الساعات بشاعة، لا يوجد أي شيء يساعد على النسيان، فأنت تمكثين هناك، وتعلمين أن أفكارك لن تفعل شيئا سوى العودة إلى الوراء. فأفكار الشخص المسن ليس لها مستقبل، والأكثر من ذلك أنها حزينة، وكئيبة. كثيرا ما سألت نفسي عن غرابة الطبيعة. في اليوم السابق رأيت فيلما وثائقيا في التلفزيون جعلني أفكر. كان يتحدث عن أحلام الحيوانات. في المملكة الحيوانية، بدءا من العصافير، تحلم الحيوانات كثيرا.

فطيور الدوري والحمام تحلم، والسناجب والأرانب تحلم، والكلاب والأبقار وهي مستلقاة في المراعي.

جميعها تحلم، ولكنها لا تحلم كلها بالطريقة نفسها. فالحيوانات التي تعد بطبعها فريسة تحلم أحلاما قصيرة، ليست سوى خيالات تتراءى لها أكثر من كونها أحلاما فعلية.

أما الحيوانات المفترسة فهي تحلم أحلاما طويلة ومركبة. وكان المذيع يقول: «إن نشاط الحلم بالنسبة إلى الحيوانات يمثل طريقة لتنظيم إستراتيجيات البقاء، فمن يصطاد يجب أن يخترع طرقا جديدة دائما ليحصل على الطعام، أما الفريسة - والتي عادة ما يكون طعامها هو الحشائش التي تجدها أمامها - يجب أن تفكر فقط في أسرع طريقة للهرب».

إذن، فالظبي في أثناء نومه يرى أمامه حقول السافانا المفتوحة، أما الأسد ففي مشاهد مستمرة ومتكررة يرى كل الأشياء التي يجب أن يفعلها لينجح في أكل الظبي. عندئذ قلت لنفسي، لا بد أن الأمر كذلك ففي فترة الشباب نكون آكلي لحوم ولكن في فترة الشيخوخة نصبح نباتيين. لأنه عندما يصبح الإنسان مسنا، بجانب أن نومه يصبح أقل، لا يحلم بالمرة، وحتى إن حلم في أثناء النوم ربما لا يتذكر الحلم بعد ذلك. ولكن أثناء فترة الطفولة والشباب يحلم الإنسان أكثر وتكون للأحلام القدرة على نقل الحالة النفسية لليوم.

أتتذكرين حالات البكاء التي كانت تنتابك بمجرد استيقاظك في الأشهر الأخيرة؟ كنت تجلسين هناك أمام فنجان القهوة والدموع تنساب على خديك في سكون. عندئذ كنت أسألك:

«لماذا تبكين؟»، وكنت تقولين بحزن أو بغضب: «لا أعلم».

في سنك هناك أشياء كثيرة تحتاج لتنظيم بداخلك، هناك المشروعات، وفي المشروعات يكمن عدم الأمان. إن الجزء غير الواعي ليس لديه نظام أو منطق واضح، فمع بقايا اليوم، المشوهة والمنتفخة، تختلط الأمنيات الأكثر عمقا، وبين تلك الأمنيات العميقة تتسرب احتياجات الجسد. وهكذا، من يشعر بالجوع يحلم بأنه يجلس على مائدة ولا ينجح في تناول الطعام، وإذا كان يشعر بالبرد يحلم بأنه في القطب الشمالي، وليس لديه معطف، وإذا كان قد تعرض لإساءة ما يصبح محاربا يرغب في إراقة الدماء.

ما هي الأحلام التي تحلمينها هناك بين الصبار ورعاة البقر؟ يسعدني أن أعرف ذلك. من يدري إذا كنت من حين إلى آخر، أظهر أنا أيضا وسط كل هذا وأنا أرتدي ملابس الهنود الحمر؟ ومن يدري إذا كان أسفل جلد الذئب الشمالي سيظهر بوك؟ هل تشعرين بالحنين؟ هل تفكرين فينا؟

أتعلمين! مساء أمس وبينما أنا جالسة على مقعدي أقرأ، سمعت فجأة في الغرفة صوتا إيقاعيا، عندما رفعت رأسي عن الكتاب رأيت بوك يدق بذيله على الأرض أثناء نومه. وقد تأكد لديّ من تعبيرات الفرحة التي ارتسمت على فمه أنه يراك أمامه، ربما كنت قد وصلت لتوك وكان هو يحتفل بك أو ربما كان يتذكر نزهة جميلة قمتما بها معا.

إن الكلاب عادة ما تكون شفافة جدا تجاه المشاعر الإنسانية، ومع العشرة منذ بداية الأزمنة أصبحنا تقريبا متشابهين، ولهذا

السبب يكره الكثيرون ذلك، يرون الكثير من الأشياء تنعكس في نظراتهم الخائفة برفق، وهي أشياء يفضلون عادة تجاهلها.

إن بـوك يحلـم بك كثيرا في هذه الفترة، أنا لا أنجح في هذا، أو ربما أنجح فيه ولكن لا أستطيع تذكره.

عندمـا كنـت صغيرة، عاشـت في منزلنا لفتـرة إحدى أخوات أبـي، بعـد ترملهـا بفتـرة صغيـرة. كانـت تعشـق الروحـانيـات، وبمـجـرد مـا كنـا نختفي عن أعـين والدي، وفـي الأركان الأكثر ظلاما والمخفية كانت تعلمني القدرات الخارقة للعقل.

كانـت تقـول لي: «إذا أردت أن تتصلي بشـخص بعيد، يجب أن تمسـكي بصورته في يـدك، وتصنعي علامة صليـب ومعها ثلاث خطوات، ثم تقولين هآنذا». بهذه الطريقة - في رأيها - يمكن أن يتم الاتصال بتوارد الخواطر مع الشخص المرغوب.

هـذه الظهيـرة، وقبل أن أكتـب لك، فعلت هذا. كانت السـاعة حوالـي الخامسـة، لا بـد أنـه كان الصبـاح لديـك. هـل رأيتني؟ هـل شـعرت بي؟ لقد لمحتك في أحد تلـك المطاعم المضيئة وذات الأرضيـة اللامعـة حيث تؤكل شـطائر اللحم، لقـد ميزتك على الفور بين تلك الجموع الملونة، لأنك كنت ترتدين الكنزة السميكة التـي كنت قد صنعتها لك، تلك المرسـوم عليها الوعول الحمراء والزرقاء. ولكن الصورة كانت سـريعة جدا ومشوشة جدا، شبيهة بتلـك الخاصـة بالمسلسـلات، ولذلك لم أنجح فـي أن أرى تعبير عينيك. هل أنت سعيدة؟ هذا هو أكثر شيء يؤرقني.

أتتذكرين كم من المناقشات قمنا بها حتى نقرر إذا كان مناسبا أم لا أن أتكفل أنا بإقامتك الدراسية الطويلة في الخارج؟

كنت تؤكدين أن هذا مهم جدا لك، وأنه لكي تكبري ويتفتح ذهنك كنتِ في حاجة إلى أن تذهبي بعيدا، وأن تتركي تلك البيئة المغلقة التي تربيتِ فيها.

كنتِ قد انتهيت للتو من دراستك الثانوية وكنت تتخبطين في الظلام الحالك حول الذي ترغبين في عمله عندما تكبرين. عندما كنتِ صغيرة كانت لديك رغبات كثيرة: كنت تريدين أن تصبحي طبيبة بيطرية، أو مكتشفة أو طبيبة للأطفال الفقراء. لم يتبق أي أثر من هذه الأمنيات، والانفتاح المبدئي الذي كنت قد أظهرتِه في هذا الاتجاه أغلقتِه مع مرور السنوات. كل ما كان يعتبر محبة للبشر، ورغبة في الاتصال بالآخرين، أصبح في وقت قليل جدا مجرد شيء مثير للسخرية، مجرد نتيجة الوحدة والتركيز على قدرك التعيس.

وعندما كان يحدث أن نرى في التليفزيون بعض الأخبار القاسية، كنت تسخرين من التعاطف الظاهر في كلماتي وأنت تقولين: في سنك هذه ممَ تدهشين؟ ألا تعرفي أن البقاء للأصلح وهو المعيار الذي يحكم العالم؟

في المرات الأولى من هذا النوع من التعليقات كنت أحبس أنفاسي، كان يبدو لي أن هناك وحشا بجواري، وأنا أنظر إليك دون أن تلاحظي كنت أسأل نفسي من أين أتيتِ، وإذا كان هذا هو الذي علمته لكِ، ولم أجبك مطلقا ولكنني كنت أعرف أن وقت الحوار قد انتهى، وأي شيء كنت سأقوله لن يسبب سوى صدام.

من جهة كنت أخشى من ضعفي ومن فقدان طاقتي بلا فائدة، ومن جهة أخرى كنت موقنة أن أي صدام مباشر هو ما

تبحثين عنه، وأنه بعد أول صدام سيكون هناك الكثير، ثم الأكثر، ثم الأكثر عنفا.

وراء كلماتك كنت أشعر بطاقتك تتزايد، طاقة متعجرفة، على وشك الانفجار، ولكن محكومة بصعوبة شديدة، وقد أجبرك تجاهلي لحدتك، ولامبالاتي الظاهرية بهجومك على البحث عن طرق أخرى.

عندئذ قمتِ بتهديدي بالرحيل، بالاختفاء من حياتي من دون إخباري. ربما كنت تتوقعين اليأس والتوسلات المتواضعة لسيدة مسنة. عندما قلت لك إن رحيلك سيكون فكرة رائعة بدأت في التردد، كنت تبدين كحية رفعت رأسها فجأة شاهرة أنيابها ومستعدة للهجوم، وفجأة لم تعد ترى أمامها الشيء الذي أرادت مهاجمته. عندئذ بدأتِ في المفاوضات، في تقديم عروض، وقمتِ بعمل عروض كثيرة وغير واثقة، حتى ذلك اليوم الذي اقتربت فيه - بنوع جديد من الثقة - وأمام فنجان القهوة صرختِ قائلة: «سأذهب إلى أمريكا».

استقبلت قرارك هذا مثل القرارات الأخرى، بهدوء واهتمام، لم أكن أريد بموافقتي أن أدفعك للقيام باختيارات عاجلة، لم تشعري بها في قرارة نفسك. وفي الأسابيع التالية بدأت تحدثينني عن فكرة أمريكا. كنت تكررين بإصرار: «إذا ذهبت هناك لمدة عام، على الأقل سأتعلم لغة جديدة ولن أضيع وقتي». وكنت تغضبين بشدة عندما كنت أحاول أن أقول لك إن فقدان الوقت ليس شيئا بشعا. ولكن وصلت إلى حالات الغضب في اللحظة التي قلت لك فيها إن الحياة ليست سباقا ولكنها سعي

نحـو الهدف، وليس توفير الوقت هو المهم، ولكن الأهم هو إيجاد الهـدف. كان هنـاك كوبان فوق المائدة قمت على الفور بإزاحتهما بذراعـك وانفجرتِ في البـكاء، وقلتِ: «أنت غبيــة»، وأنت تغطين عينيك بيديك، «أنت غبية، ألا تفهمي أن هذا ما أريده فعلا؟».

لمدة أسابيع كنا كجنديين حريصين على ألا تطأ أقدامنا لغما مـا في أحد حقـول الألغام. كنا نعـرف أين كان، ومــاذا كان، وكنا نسـير بعيدين عنه، محاولين التظاهر بأن ما نخشـاه هو شــيء مختلـف تماما. وعندما انفجر، انفجـرت أنت في النحيب وأنت تقولين لي: «إنك لا تفهمين شيئا، ولن تفهمي شيئا مطلقا»، كان عليّ بذل جهد رهيب حتى لا أجعلك تلحظين شعوري بالضياع.

والدتـك والطريقــة التي أنجبتك بهــا، ووفاتها... لم أحدثك عــن هذا كله، وسـكوتي جعلـك تعتقدين أن كل هــذا لا وجود له لديّ، ولا يهمني. ولكن والدتك كانت ابنتي، ربما لا تدركين ذلك، أو ربمــا تدركينــه، ولكن بدلا مــن أن تقوليــه، تخبئينه بداخلك، وإلا مــا الذي يكمــن وراء بعض نظراتك، بعض الكلمات المملوءة بالكراهية. ليس لديك ذكريات عنها إلا الفراغ، فقد كنت صغيرة جــدا يوم موتها. ولكن أنا، أحتفظ بذاكرتي بثلاثة وثلاثين عاما من الذكريات بالإضافة إلى الشـهور التسـعة التي فيها حملتها في أحشــائي. كيـف يمكنك التفكيـر أنني أشـعر بلامبالاة تجاه ذلك؟

إن عـدم مواجهتــي لهذا الموضوع من قبل كان سـببه شـعوري بالخــزي، بالإضافــة إلــى قــدر كبير مــن الأنانية: الخــزي لأنني للتحدث عنها كان عليّ أن أتحدث أيضا عن نفسي، عن أخطائي

الحقيقيـة والمزعومـة، والأنانية لأنني كنـت أتمنى أن يكون حبي كبيرا جدا حتى يمكنه تغطية نقص حبها، وأن يمنعك تماما من الحنـين إليهـا يوما مـا، وأن يمنعك تماما من أن تسـأليني: «من كانت أمي، ولماذا ماتت؟».

طيلـة فتـرة طفولتك، كنا سـعداء معـا. كنت طفلـة مملوءة فرحا، ولكن في سـعادتك لم يكن هناك شـيء سطحي، أو مبالغ فيـه. كانت سـعادة يكمن لهـا دائما بالمرصاد ظـلال التأمل، كنت تنتقلين من الضحكات إلى الصمت بسهولة مذهلة. عندئذ كنت أسـألك: «ماذا حـدث، فيم تفكرين؟». وأنـت، كأنك تتحدثين عن أكلة خفيفة كنت تجيبينني: «أفكر إذا كانت للسماء نهاية، أم أنها تسـتمر هكذا إلى مـا لا نهاية». كنت فخـورة بكونك هكذا، كانت حساسيتك تجاه الأشياء تشبه حساسيتي، لم أكن أشعر بنفسي كبيرة أو بعيدة، ولكن معقدة قليلا.

كنـت أخدع نفسـي، أو ربمـا كنت أريد أن أخدع نفسـي أن هذا الوضع سيستمر إلى الأبد. ولكن للأسف، لسنا مخلوقات معلقة فـي فقاقيـع الصابـون، نطير سـعداء في الهـواء، فهنـاك بداية ونهايـة لحياتنـا، وهـذا التطـور في الحيـاة يتدخل فـي أقدارنا، ويفرض نفسه علينا تماما كما تلقى الشبكة على الفريسة.

يقـال إن ذنـب الآباء يحصـده الأبناء. هـذا حقيقي، حقيقي جـدا، إن ذنـوب الآبـاء تقـع علـى الأبناء، وذنـوب الأجـداد على الأحفاد، والأسـلاف على آخر الأحفـاد. هناك حقائق تحمل في طياتها معنى الحرية وحقائق أخرى تحتوي معاني مرعبة. هذه الحقيقة تنتمي للنوع الثاني.

أيـن تنتهي سلسـلة الذنـوب؟ عند قابيل؟ هـل يجب فعلا أن نعـود إلـى الوراء بعيدا هكذا؟ هل هناك شـيء وراء هذا كله؟ في إحدى المرات، قرأت في كتاب هندي أن القدر يمتلك كل السلطة، بينما مجهود الإرادة ليس إلا نوعا من الاعتراض.

بعد أن قرأت هذا انتابني سلام عظيم بداخلي.

ولكـن فـي اليـوم التالي، وبعد قـراءة المزيد، وجـدت أن القدر ليـس إلا نتيجة للأعمال الماضية، فنحن- بيدنا- المسـؤولون عن تشكيل قدرنا. وهكذا عدت مرة أخرى إلى نقطة البداية، وسألت نفسـي: أين طرف الخيط في كل هذا؟ ما الخيط الذي نتأرجح عليه؟ أهو خيط أم سلسلة؟ أهو شيء يمكن قطعه وكسره، أم أنه يحيط بنا إلى الأبد؟

علـى كلٍ سـأقطع أنـا الآن حديثـي. فلـم يعد رأسـي كما كان في الماضي، مؤكد أن الأفكار موجودة دائما، ولم يتغير شـيء من طريقـة تفكيـري، ولكن ما تغيـر هو القدرة علـى تحمل مجهود طويل. أشعر الآن بتعب، رأسي يدور كما كان يحدث لي وأنا شابة عندما كنت أحاول قراءة كتاب فلسفة. أكون، أم لا أكون، الحضور... بعد بضع صفحات كنت أشعر بالدوران نفسه الذي يشعر به المرء عندما يسـافر في سـيارة نقل عام في الطرق الجبلية. سـأتركك الآن، وسـأذهب لأصاب قليلا بالبله أمام ذلك الصندوق المحبوب المكروه، الموجود في الصالون.

20 نوفمبر

هآنذا من جديد، اليوم الثالث من لقائنا. أو الأفضل أن أقول اليوم الرابع واللقاء الثالث. بالأمس كنت متعبة جدا حتى أنني لم أتمكن من كتابة أو قراءة أي شيء. ونظرا إلى أنني كنت أشعر بالقلق ولا أعرف ماذا أفعل أخذت أدور النهار كله بين المنزل والحديقة. كان الهواء معتدلا بدرجة كافية، وفي أكثر الأوقات حرارة جلست على مقعد الحديقة بجوار شجرة جرسيه الأزهار.

كان المرعى وأزهار الأوركيد حولي في حالة فوضى كاملة. وأنا أنظر إليها تذكرت مشاجرة الأوراق الساقطة. متى كانت؟ العام الماضي؟ منذ عامين؟ كنت مصابة بالتهاب رئوي استمر فترة طويلة، وكانت الأوراق كلها فوق الأعشاب، تبعثرها الرياح هنا وهناك. عندما اقتربت من النافذة شعرت بحزن شديد، كانت السماء قاتمة، وكان الهواء يعصف بشدة في الخارج.

ذهبت إليكِ في حجرتك، حيث كنت مستلقية على فراشك والسماعات موضوعة فوق أذنيك. طلبت منك بلطف أن تبعدي الأوراق، وليصل صوتي إليك اضطررت أن أكرر العبارة عدة مرات بصوت أعلى في كل مرة. فرفعتِ كتفيك وأنت تقولين: «ولماذا إذن؟ في الطبيعة لا أحد يجمعها فهي تبقى هناك حتى تتعفن

ولا يحـدث شـيء». في ذلـك الوقت كانت الطبيعـة هي حليفك، كنت تنجحين في أن تبرري كل شـيء بقوانينها الراسـخة، وبدلا من أن أشـرح لك أن الطبيعة في الحديقة، طبيعة أليفة، طبيعة كالكلب الذي يصبح بمرور الأعوام أشـبه بصاحبه، والتي تحتاج كالكلب أيضا اهتماما مسـتمرا، انسـحبت إلى الصالون من دون أن أنبس ببنت شفة.

بعـد ذلـك بقليل، عندما مررتِ من أمامي لتأخذي شـيئا من الثلاجة لتأكليه رأيتني أبكي ولكنك لم تنتبهي. فقط في ساعة العشـاء، وعندمـا خرجتِ مرة أخـرى من حجرتك وقلـتِ: «ماذا يؤكل؟». أدركت أنني كنت مازلت هناك، وكنت مازلت أبكي. عندئذ ذهبـت إلى المطبخ وبـدأتِ في إعداد الفـرن، وصرخت من حجرة إلى أخرى: ماذا تفضلين، بودنج الشـيكولاتة أم الحلوى المقلية؟ كنـت قد أدركتِ أن آلامـي كانت حقيقية وكنتِ تحاولين أن تكوني لطيفة، وأن ترضيني بطريقة ما.

وفـي الصبـاح التالـي بمجرد أن فتحـت النافـذة، رأيتك في المرعى، كانت السماء تمطر بغزارة، كنت ترتدين المعطف الأصفر الواقـي مـن الأمطـار وكنـت تذرين الأوراق. وعندمـا عـدتِ إلى الداخل في حوالي التاسـعة، تظاهرت أنا بعدم حدوث أي شـيء، كنت أعرف أن أكثر شـيء تكرهينه بداخلك هو ذلك الجزء الذي يدفعك نحو التصرفات الطيبة.

هـذا الصبـاح وأنا أنظر بيـأس لأزهار الأوركيد فـي الحديقة، فكرت أنه يجب أن أسـتدعي أحدا ليبعد هذا الذي سـقطت فيه فـي أثنـاء فترة مرضي وبعدها. وكنت أفكـر في هذا منذ خرجت

مـن المستشـفى، ولكنني لم أنجح مطلقا فـي عمل ذلك. فبمرور السـنوات نمـت بداخلـي غيرة شـديدة على حديقتي، فلا شـيء فـي العالم يمكـن أن يجعلني أتخلى عن ريّ أزهـار الداليا، أو أن أنزع أحد الأوراق الميتة عن فرع ما. شـيء غريب، لأنني وأنا شابة كنـت أتضايق جدا مـن اعتنائي بالحديقـة، كان امتلاك حديقة بالنسـبة إلي مصـدرا للمضايقـة وليس امتيازا، يكفـي إهمالها ليـوم أو ليومين حتى يحل محل هذا النظام - الذي وصلت إليه بعـد مجهـود مضـن - الفوضى مـرة أخرى. والفوضـى هي أكثر شيء يسبب لي الضيق.

لم يكن لديّ استقرار بداخلي، وبالتالي لم أكن أتحمل أن أرى في الخـارج ما يكمن في داخلـي. كان عليّ أن أتذكـر هذا عندما طلبت منك أن تذري الأوراق.

هنـاك أشـياء يمكـن فهمها فقط في سـن معينـة وليس قبل ذلك، من بين هذه الأشياء العلاقة مع المنزل ومع كل ما يحتويه ويحيط به.

في سـن الستين أو السبعين تدركين فجأة أن الحديقة والمنزل لم يعودا بعد الحديقة والمنزل حيث تعيشين لراحتك أو مصادفة أو للناحية الجمالية، ولكنهما حديقتك ومنزلك، ينتميان إليك كما تنتمي المحارة للحيوان الرخوي الذي يعيش بداخلها. فلقد شكلت المحارة بإفرازاتك.

فتاريـخ حياتك هو الذي يشـكل هيكلها، يحيـط بك المنزل/ القوقعـة، ويقف فوقك، وربما ولا حتى الموت يسـتطيع تحريرها من وجودك، من الأفراح والأتراح التي شعرت بها في داخله.

مســاء أمس لم تكن لديّ الرغبة في القراءة، وهكذا شــاهدت التليفزيون. ولكن حقيقة الأمر أنني استمعت أكثر مما شاهدت، لأنه بعد أقل من نصف ساعة من بداية البرنامج غفوت.

كنــت أســمع الكلمــات بالـكاد، كمــا يحــدث أن ينتــاب أحــدا النعــاس فــي القطــار وتصل إليــه أحاديــث المســافرين الآخرين متقطعة وخالية من المعنى. كانوا يعرضون تحقيقا صحفيا عن الجماعــات الدينية حتى نهاية الألف الثانية. كان هناك العديد مــن المقابلات مع رهبــان حقيقيين ومزيفين، ومــن نهر الكلمات المتدفــق وصل إلى مســامعي أكثــر من مرة المصطلــح «كارما» (*)، وبمجــرد أن ســمعته عــاد إلــى ذهنــي وجه مــدرس الفلســفة في المرحلة الثانوية.

كان شــابا وكان مقاوما للاتجاهات الســائدة فــي ذلك الوقت، وأثناء شــرحه لشــوبنهاور حدثنا قليلا عن الفلســفات الشرقية، وأثناء حديثه قدم لنا أيضا مفهوم الكارما. في تلك المرة لم أُعِر هذا الشيء اهتماما كبيرا، كانت تلك الكلمة وما تمثله قد دخلا مــن أذن وخرجا من الأخرى. ولســنوات عديــدة وفي العمق بقى الإحســاس أنها قانون للقصاص، شــيء مثل مبــدأ العين بالعين والسن بالسن والجزاء من جنس العمل.

فقــط عندمــا اســتدعتني مديــرة الحضانــة لتحدثنــي عــن تصرفاتــك الغريبــة، عــاد مفهــوم الكرمــا وكل ما يتعلــق به إلى ذهني. كنت قد سببت اضطرابا في المدرسة الابتدائية كلها، فجأة وفــي أثناء الســاعة المخصصــة للروايات الحرة أخــذتِ تتحدثين

(*) الكرمــا: العاقبة الأخلاقيــة الكاملة لأعمال المرء في طور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذي يقرر قدر ذلك المرء (في الاعتقاد البوذي) في طور تناسخي تال - [المترجم].

عن حياتك السابقة. لأول وهلة اعتقدت المدرسات أن هذه مجرد تصرفات أطفال غريبة. وأمام قصتك أخذن يحاولن التقليل من شأن ما تقصين، والإيقاع بك في المتناقضات، ولكنك لم تقعي فيها مطلقا، بل إنك قلت كلمات بلغة غير معروفة لأحد مطلقا. وعندما تكرر هذا الأمر للمرة الثالثة أرسلت مديرة المعهد تستدعيني، ولمصلحتك ولمصلحة مستقبلك نصحوني باصطحابك إلى طبيب نفسي.

قالت لي المديرة: «من الطبيعي أن تتصرف هكذا نتيجة للصدمة التي تعرضت لها، محاولة أن تهرب من الحقيقة».

بالطبع لم أصطحبك للطبيب النفسي فقد كنت تبدين لي طفلة سعيدة، وكنت ميالة أكثر إلى أن أعتقد أن خيالك هذا ليس بسبب مأساة ولكنه لمجرد ترتيب مختلف للأشياء. وبعد ما حدث لم أدعك قط تتحدثين عن هذا، وأنت أيضا لم تشعري باحتياج لذلك. ربما كنت قد نسيت كل شيء في اليوم نفسه الذي قلت فيه هذا كله أمام المدرسات المندهشات.

أشعر بأنه في السنوات الأخيرة أصبح ذلك موضة لبعض الصفوة، ولكنه حاليا أصبح شيئا يتداوله الجميع. منذ فترة، قرأت في إحدى الصحف أنه يوجد في أمريكا مجموعات للوعي الذاتي عن التناسخ. يجتمع فيها الناس ويتحدثون عن وجودهم السابق. هكذا تقول ربة المنزل: «في القرن التاسع عشر في نيو أورلينز كنت عاهرة ولهذا لا أنجح حاليا في أن أخلص لزوجي»، بينما يجد عامل البنزين المتعصب سببا لكراهيته إذ أنه قد التهمته قبيلة البانتو السوداء في أثناء إحدى الحملات في

القرن السابع عشر. يا له من هراء تعس! فبعد فقد جذور ثقافتنا الخاصة نحاول أن نعالج عدم الثقة في الحاضر الرمادي بتوهم وجود شيء ما في الماضي. وإذا كان لدورة الحياة معنى - على ما أعتقد - فهو بالتأكيد معنى مختلف تمام الاختلاف.

وفي وقت الأحداث التي وقعت في الحضانة أحضرت عدة كتب، ولأفهمك بطريقة أفضل حاولت أن أعرف المزيد. وفي أحد تلك الكتب كان مكتوبا أن الأطفال الذين يتذكرون بدقة حياتهم السابقة هم هؤلاء الذين توفوا مبكرا وبطريقة عنيفة. وكانت الأفكار الاستحواذية غير المفهومة على ضوء خبراتك وأنت طفلة - الغاز الذي يخرج من الأنابيب، الخوف من أن كل شيء يمكن أن ينفجر فجأة - تجعلني أتعاطف مع هذا التفسير. عندما كنت تشعرين بالتعب أو بالقلق أو بقلة النوم كنت تشعرين برعب غير مفهوم، لم يكن هذا بسبب الرجل الأسود الذي يخيفك أو الساحرات الشريرات، أو حتى الذئاب المتوحشة، لكنه كان الخوف المفاجئ أنه من لحظة إلى أخرى سينفجر عالم الأشياء.

في المرات الأولى، بمجرد أن تظهري أمامي في حجرتي مرعوبة في قلب الليل، كنت أنهض وأحدثك بلطف ثم أعيدك إلى غرفتك.

هناك، وأنتِ مستلقية على فراشك، وأنتِ تتشبثين بيدي كنتِ تريدين أن أقص عليك قصصا تنتهي نهايات سعيدة. وخوفا من أن أقول شيئا يثير قلقك، كنتِ تضعين لي أولا الحبكة وبدايتها ونهايتها، ولم أكن أفعل شيئا سوى أن أكرر - بلا رأي - تعليماتك.

كنت أكرر الحدوتة مرة ومرتين وثلاث مرات، وعندما كنت

أنهض لأذهب لحجرتي، مقتنعة أنك قد هدأت، كان يصلني صوتك الحزين وأنا أمام الباب وأنت تسألين: «أهو كذلك؟ هل حقيقي أن الأمور تنتهي دائما بهذه الطريقة؟!».

عندئذ كنت أعود إلى الوراء، وأقبلك على جبهتك وأقول لك وأنا أقبلك: «لا يمكن أن تنتهي بأي طريقة أخرى يا حبيبتي، أقسم لك».

ولكن في بعض الليالي الأخرى، على الرغم من أنني كنت أرفض فكرة نومك معي - ليس في مصلحة الأطفال أن يناموا مع المسنين - لم تكن تأتيني الشجاعة لأرسلك إلى فراشك. كنت - بمجرد أن أشعر بوجودك بجوار الفراش - أطمئنك من دون أن أدير وجهي: «إن كل شيء تحت السيطرة، لن ينفجر أي شيء، عودي إلى غرفتك». ثم كنت أتظاهر بأنني رحت في سبات عميق، عندئذ كنت أشعر بأنفاسك الخفيفة الساكنة لفترة، ثم بعد ذلك بثوان يبدأ الفراش في الاهتزاز بضعف، فقد كنت تنزلقين بجواري بحركات حريصة، وكنت تنامين منهكة القوة مثل فأر صغير يصل أخيرا إلى دفء مخبئه بعد رعب شديد.

وفي الفجر، لأستكمل معك اللعبة كنت آخذك من ذراعك وأنت مستسلمة تماما، وكنت أعيدك لتستكملي حلمك في حجرتك. وعند استيقاظك كان من النادر أن تتذكري أي شيء، وكنت دائما مقتنعة بأنك قضيت ليلتك كلها في فراشك. وعندما كانت تصيبك نوبات الفزع تلك في أثناء النهار، كنت أتحدث معك بلطف وأقول لك: «ألا ترين كم تبلغ قوة المنزل، انظري إلى سمك الجدران، كيف يمكن أن ينفجر شيء كهذا؟!»

ولكن كل جهودي لطمأنتك كانت تذهب سدى، فكنت تستكملين تأملاتك للفراغ بعينين مفزوعتين وأنت تقولين: «كل شيء يمكن أن ينفجر».

ولم أتوقف لحظة عن أن أسأل نفسي عن سبب رعبك هذا. ماذا يمكن أن يكون الانفجار؟ هل يمكن أن يكون ذكرى والدتك، ونهايتها المأساوية المفاجئة؟ أم هو شيء يتعلق بتلك الحياة التي رويتِ عنها ببساطة متناهية لمدرسات الحضانة؟ أو كان الشيئين معا مختلطين في مكان ما يصعب الوصول إليه في ذاكرتك؟ من يدري. على الرغم مما يقال، أعتقد أنه في رأس الإنسان مازالت توجد مناطق مظلمة أكثر من تلك المضيئة.

على كل حال ففي الكتاب الذي اشتريته في تلك الفترة كان مكتوبا أيضا أن الأطفال الذين يتذكرون الحيوات الأخرى كثيرون في الهند وفي الشرق الأقصى، في البلاد التي يكون فيها هذا المفهوم مقبولا تراثيا، ولا أستبعد أن أصدق هذا.

فلتتخيلي إذا كنت ذهبت أنا يوما ما إلى والدتي ومن دون أي سابق إنذار بدأت أحدثها بلغة أخرى أو قلت لها: «أنا لا أحتملك، كنت أحسن حالا مع أمي في الحياة الأخرى». يمكنك أن تتأكدي أنها لم تكن لتنتظر يوما واحدا لتحبسني في مصحة نفسية.

هل توجد وسيلة لتحررنا من القدر الذي تفرضه علينا البيئة الأصلية، من كل ما خلّفه لنا أسلافنا عن طريق الدم؟ من يدري ربما في ذلك التتابع المرضي المنغلق للأجيال ينجح أحدهم في لحظة معينة في أن يلمح درجة أعلى ويحاول أن يصل إليها بكل قواه.

كسر حلقة ما ومحاولة تجديد هواء الغرفة هذا هو على ما أعتقد، السر الصغير جدا لدورة الحياة. صغير جدا لكنه منهك جدا، مخيف نتيجة عدم تأكيده.

لقد تزوجَت أمي في عمر السادسة عشرة، وأنجبتني وهي تبلغ من العمر سبعة عشر عاما. في مرحلة طفولتي كلها، بل طيلة حياتي، لم أرها مطلقا تعاملني بحنان . لم تتزوج عن حب، لم يجبرها أحد على ذلك، لقد أجبرت هي نفسها، لأنها - نظرا إلى كونها ثرية ولكن يهودية، والأكثر من ذلك مؤمنة - كانت تطمع في امتلاك لقب من ألقاب النبلاء.

أما أبي، والذي كان يكبرها في السن، بارون ويهوى الموسيقى، قد سحرته موهبتها في الغناء.

وبعد أن أنجبا الوريث الذي كان مهما للحفاظ على اسم العائلة، عاشا غريقين في النكد والمشاحنات حتى نهاية أيامهما.

ماتت أمي غير راضية ونادمة، من دون أن ينتابها أدنى شك في أنها على الأقل اشتركت بطريقة أو بأخرى في هذا الخطأ. بل كانت مقتنعة بأن العالم هو القاسي جدا، لأنه لم يسمح لها باختيارات أفضل. وكنت أنا مختلفة كثيرا عنها. وبالفعل في سن السابعة، بعد أن عبرت مرحلة الاعتماد الطفولي عليها، بدأت لا أحتملها.

لقد عانيت كثيرا بسببها، كانت تثور باستمرار، وكانت ثورتها دائما بسبب أشياء خارجية فقط.

فقد كان «كمالها» المزعوم يشعرني بأنني شريرة، وكانت الوحدة هي ثمن شري. في البداية بذلت بعض المحاولات لأكون

مثلها، لكنها كانت محاولات فاشلة، وكانت تنتهي غالبا باليأس.

وكلما كنت أحاول ذلك كنت أشعر بالضيق. فالتخلي عن الذات يؤدي إلى اليأس، وبين اليأس والغضب خيط رفيع.

عندما أدركت أن حب أمي هو شيء متعلق بالمظاهر فقط، يتعلق بما يجب أن أكون عليه، وليس بما كنت عليه، بدأت أشعر في السر وفي خفايا قلبي بأنني أكرهها فعلا.

ولأهرب من هذا الشعور كنت ألجأ لعالمي الخاص. في المساء، في فراشي وأنا أخفي الضوء بقطعة قماش كنت أقرأ كتب المغامرات حتى ساعة متأخرة من الليل. وكنت أحب التخيل جدا، لفترة من الزمن كنت أحلم بأنني قرصانة، أعيش في بحر الصين، وكنت قرصانة مختلفة تماما، لأنني كنت أسرق ليس لنفسي بل لأعطي كل شيء للفقراء.

ومن خيالات العصابات وصلت إلى تلك الخيالات الخاصة بالنزعة الخيرية، كنت أفكر أنه بعد تخرجي في كلية الطب يمكنني الذهاب إلى أفريقيا للعناية بالأفارقة الفقراء.

وفي سن الرابعة عشرة قرأت السيرة الذاتية لشيليمان. وأنا اقرأها أدركت أنني لن أستطيع مطلقا أن أعالج أي إنسان لأن هوايتي الوحيدة الحقيقية هي علم الآثار. ومن بين كل الأعمال الأخرى غير المتناهية التي تخيلت أنني سأقوم بها، أعتقد أن تلك كانت الهواية الوحيدة التي تناسبني.

وبالفعل، لأحقق هذا الحلم، قمت بالمعركة الأولى والوحيدة مع أبي، تلك الخاصة بالتحاقي بالقسم الأدبي في دراستي الثانوية. لم يكن يريد أن يسمعني أتحدث عن هذا الموضوع،

كان يقـول إن هـذا لن يفيد في شـيء، وإنه إذا كنـت أريد بالفعل أن أدرس، كان مـن الأفضـل أن أتعلم اللغـات. ولكنني في النهاية نجحت...

وفـي اللحظـة التـي كنت أعبر فيهـا بوابة المدرسـة الثانوية، كنت واثقة تماما بأنني فزت. ولكنني كنت واهمة. وعندما أعلنت لـه في نهايـة دراسـاتي العليا عن رغبتي في اسـتكمال دراسـتي الجامعيـة فـي روما، كانت إجابته نهائية: «لـن نتحدث حتى عن هذا».

وأنا - كما كان يحدث في ذلك الوقت - أطعت من دون حتى أن أتنفس. لا يجب أن يعتقد المرء أن الفوز في إحدى المعارك يعني الفـوز في الحرب. إنه خطأ الشـباب. عندما أفكـر في هذا الأمر الآن، أعتقد أنني لو كنت صارعت مرة أخرى، إذا كنت قد أصررت على رأيي، كان والدي سيوافق في النهاية.

كان رفضـه الحاسـم هذا يعد جـزءا من النظـام التربوي في ذلك الوقت. في الواقع لم يكن الآباء يؤمنون بقدرة الشباب على اتخـاذ قراراتهم الخاصـة، وبالتالي، عندما كانـوا يظهرون رغبة مختلفة، كانوا يحاولون أن يضعونهم تحت الاختبار. ونظرا إلى أننـي قـد تراجعت أمـام أول عائق، كان الأمر جليا جدا بالنسـبة إليهم أنها ليست رغبة حقيقية ولكن مجرد أمنية عابرة.

كان الأبنـاء - بالنسـبة إلـى أبـي وأمي - قبل كل شـيء واجبا ظاهريـا. وبالتالـي كانـوا يهملـون تطورنـا الداخلـي، بـل كانوا يتعاملون بقسوة متناهية مع الجوانب الأكثر تفاهة في التربية. كان يجـب علـيّ أن أجلس معتدلـة على مائدة الطعـام وركبتاي

قريبتـان من جسـدي. ولم يكن مهما بالنسـبة إليهـم إذا ما كان ذلك يصيبني بالرغبة في الانتحار.

إن المظهر هو كل شـيء، أي شـيء بعيد عن ذلك كان لا يليق. هكذا كبرت وبداخلي الشعور بأنني شيء شبيه بالقرد الذي يجب تدريبه جيدا وليس الإنسان، شخص له أفراحه وأتراحه، شخص يحتاج لأن يكون محبوبا.

ومـن هنـا ولـد الضيـق بداخلـي مبكرا جـدا، إحسـاس كبير بالوحدة، وحدة أصبحت هائلة بمرور الوقت، نوع من الفراغ الذي يحـدث لعجـلات السـيارات، والذي فيه كنت أتحـرك في حركات بطيئة وسخيفة مثل حركات الغواص. وكانت الوحدة تولد أيضا من التساؤلات، تساؤلات كنت أطرحها على نفسي ولم أكن أعرف كيف أجيب عنها. فبدءا من الرابعة أو الخامسـة من عمري كنت أنظر حولي وأتسـاءل: «لماذا أنا هنا؟ من أين أتيت؟ ومن أين أتت كل الأشـياء التـي أراهـا حولي، ماذا وراء كل هـذا، هل كانت كلها هنا أيضا وأنا غير موجودة، هل سـتبقى إلى الأبد؟». كنت أسـأل نفسـي كل الأسـئلة التي يتسـاءلها الأطفال الحساسـون عندما يواجهـون العالـم المعقد. وكنت مقتنعة بأنه حتـى إذا كان الكبار يطرحون تلك الأسئلة، فهم قادرون على الإجابة عنها. ولكن بعد محاولتين أو ثلاث مع أمي والمربية اسـتنتجت أنهم لم يتوصلوا إلى إجابات، بل لم يطرحوا تلك الأسئلة على أنفسهم أصلا.

وهكذا تزايد لديّ الشعور بالوحدة، أتفهمين؟ كنت مجبرة أن أحـل وحدي كل لغـز بقوتي أنا فقط، وكلما كان الوقت يمر، كنت أسـأل نفسي عن كل شـيء، وكانت الأسئلة تزداد حجما وفظاظة

في كل مرة، كانت تثير الرعب لمجرد التفكير فيها.

وفي السادسة كان لقائي الأول مع الموت. كان أبي يمتلك كلب صيد، «أرجو». كان وديعا، وحنونا، وكان رفيقي المفضل في اللعب. كنت أطعمه لظهيرات كاملة بحساء من الطين والأعشاب، أو كنت أجبره أن يقوم بعمل زبون لدى مصفف الشعر، وهو- من دون أن يثور- كان يدور في الحديقة وأذناه مزينتان بماسكات الشعر. ولكن ذات يوم، بينما كنت أجرب معه تصفيفة شعر جديدة، أدركت أن أسفل حنجرته يوجد شيء متورم.

فمنذ بضعة أسابيع لم تكن لديه الرغبة في الجري والقفز مثلما كان يحدث من قبل، وإذا كنت أجلس في زاوية لآكل شيئا خفيفا، لم يكن يجلس أمامي يتنهد وهو مهموم.

وفي صباح أحد الأيام، وعند عودتي من المدرسة، لم أجده ينتظرني بجوار مدخل المنزل. في البداية اعتقدت أنه ذهب إلى مكان ما مع والدي. ولكن عندما رأيت والدي جالسا بهدوء في مكتبه و«أرجو» لا يجلس تحت قدميه، انتابني قلق شديد، خرجت وأخذت أصيح بأعلى صوتي أناديه في كل أرجاء الحديقة، وعدت إلى الداخل وأخذت أبحث عنه في المنزل كله أكثر من ثلاث مرات. وفي المساء، في اللحظة التي كنت أعطي فيها والديّ قبلة المساء الإجبارية، استجمعت شجاعتي كلها وسألت أبي: «أين أرجو؟». أجابني من دون أن يرفع نظره عن الجريدة: «أرجو، رحل بعيدا». فسألته «ولماذا؟».

- «لأنه تعب جدا من مضايقاتك».

ولكن ماذا كان في هذه الإجابة؟ عدم لياقة؟ تعالٍ؟ سادية؟ في

اللحظة ذاتها التي سمعت فيها تلك الكلمات، كُسِر شيء ما بداخلي.

بدأت لا أنام في الليل، وكان يكفي أن يحدث شيء بسيط جدا حتى أنفجر في النحيب. وبعد شهر أو شهرين تم استدعاء طبيب الأطفال.

قال: «إن الطفلة ضعيفة جدا»، وأعطاني زيت كبد السمك.

ولم يسألني أحد مطلقا عن سبب عدم نومي، أو عن سبب إمساكي دائما - وفي كل مكان - بكرة أرجو المتآكلة.

ولهذا الحدث أعهد ببدايتي لسن البلوغ. في السادسة من عمري، أجل، تماما في سن السادسة. فلقد رحل أرجو لأنني كنت شريرة، إذن فإن تصرفاتي كانت تؤثر فيمن حولي. كانت تؤثر وتتسبب في الاختفاء.. في الدمار. ومنذ تلك اللحظة وفيما بعد ذلك لم تعد تصرفاتي بسيطة وتلقائية.

فبسبب رعبي أن أقترف خطأ آخر، قمت بتقليل تصرفاتي إلى أقصى درجة، وبالتالي أصبحت بليدة ومترددة. وفي الليل كنت أمسك بالكرة الصغيرة بين يداي وكنت أقول وأنا أبكي: «أرجو، أرجو، عد، حتى إن كنت قد أخطأت، فأنا أحبك أكثر من الجميع». وعندما أحضر أبي كلبا صغيرا آخر، لم أرغب حتى في النظر إليه. فلقد كان مجرد كائن غريب تماما، وكان لا بد له أن يظل كذلك.

في تربية الأطفال عادة ما يكون للنفاق سلطته.

أتذكر جيدا في إحدى المرات، وأنا أتنزه مع والدي بالقرب من حظيرة، عثرت على طائر أبوالحناء ميتا. ومن دون أي شعور بالخوف أمسكته بيدي، وأريته إياه. فصاح هو على

الفور: «ضعيه أرضا، ألا ترين أنه نائم؟»، كان الموت مثل الحب، موضوع لا يجب الخوض فيه. ألم يكن من الأفضل ألف مرة إذا كانوا قد قالوا لي إن أرجو قد مات؟ كان من الممكن أن يأخذني أبي بين ذراعيه ويقول لي: «لقد قتلته أنا لأنه كان مريضا ويعاني كثيرا، وهو مسرور جدا حيث هو الآن». كان من الممكن أن أبكي أكثر، وربما كنت شعرت بالإحباط، ولمدة شهور وشهور كنت سأذهب للمكان الذي دُفن فيه، وكنت سأتحدث معه طويلا. ثم، رويدا رويدا كنت سأبدأ في نسيانه، كانت ستهمني أشياء أخرى وكانت ستصبح لي هوايات جديدة، وكان أرجو سينزلق في عمق أفكاري كالذكرى، ذكرى جميلة لطفولتي. ولكن بهذه الطريقة أصبح أرجو هو الموت الصغير الذي أحمله بداخلي.

ومن ثم أقول إنه في سن السادسة كنت قد نضجت بالفعل، لأنه بدلا من الفرح أصبحت أشعر بالقلق، وبدلا من الفضول أصبحت أشعر باللامبالاة. هل كان أبواي وحشين؟!

أبدا، مطلقا، ففي هذا الزمن كانا طبيعيين جدا.

فقط عندما أصبحت أمي مسنة بدأت تقص عليّ أشياء عن طفولتها. كانت أمها قد توفيت وهي لاتزال طفلة، وقبل أن تلدها كانت قد رزقت بولد، أصيب في سن الثالثة بالتهاب رئوي. وكانت قد حملت بها بعد ذلك على الفور، ولكن حظها كان سيئا إذ لم تكن أنثى فقط، بل ولدت في اليوم نفسه الذي فيه توفي أخوها. وحتى تتذكر ذلك الحدث الحزين، ألبسوها ملابس الحداد وهي في سن الرضاعة. وعلقوا فوق فراشها

الصغيـر لوحة زيتية كبيرة لأخيهـا. وكان الغرض من هذا أن تتذكر، بمجرد أن تفتح عينيها، أنها ليست سوى بديل، مجرد نسخة بلا لون لشخص أفضل.

اتفهمين؟! كيف يمكنني إذن أن ألومها؟

كيـف يمكـن أن يلومهـا أحـد علـى مشـاعرها البـاردة، علـى اختياراتها الخاطئة، وعن كونها بعيدة عن الجميع؟

حتى القرود، إذا تربت في معمل مُعقم بدلا من الأم الحقيقية، يصيبهم الحزن بعد فترة ويتركون أنفسـهم فريسـة للموت. وإذا عدنـا أكثر إلى الوراء، لنرى والدتهـا، أو والدة والدتها، من يدري ماذا يمكننا أن نجد أيضا.

إن اعتيـاد التعاسـة عـادة مـا يتبع التسلسـل النسـائي. مثل بعـض الصفـات الوراثيـة، فهو يعبر مـن الأم إلى الابنـة. وأثناء عبـوره، وبـدلا من أن يصبح أهـون، يصبح أكثر كثافـة بالتدريج، يصبـح أكثر ثباتا وعمقا. بالنسـبة إلى الرجـال فالأمر مختلف جـدا، كانت لديهم المهنة والسياسـة والحرب، فـكان يمكن بذلك لطاقاتهم أن تخرج، وأن تنتشر.

أمـا نحن فالأمـر ليس كذلك. فنحـن، ولمدة أجيـال وأجيال، لـم نتردد سـوى علـى غرفة النـوم والمطبخ والحمـام، قمنا بعمل الآلاف والآلاف من الخطوات والتصرفات، ونحن نحمل بداخلنا الشـعور نفسه بالحقد، الشعور نفسـه بعدم الرضا. هل أصبحت مـن أنصار الحركة النسـائية؟ لا، لا تخشـى شـيئا، إنّنـي أحاول فقط أن أنظر بوضوح إلى ما وراء الأحداث.

هـل تتذكريـن عندما كنـا نذهب في ليلـة عيد العـذراء فوق

النتـوء الجبلي لنشـاهد الصواريخ الصناعية التـي كانت تُطلق مـن المياه؟ في كل فتـرة كان يوجـد صـاروخ من تلك الصواريخ، لا ينجح في الوصول إلى السماء على الرغم من انفجاره. عندما أفكـر في حيـاة أمي، وحياة جدتـي، عندما أفكر فـي العديد من الأشـخاص الذيـن عرفتهم، تعود إلي ذاكرتي فـورا تلك الصورة: نيران تتفجر ولا تنجح في الصعود إلى أعلى.

21 نوفمبر

في مكان ما قرأت أن مانزوني، بينما كان يكتب روايته «أزواج المستقبل»، كان يستيقظ كل صباح فرحا لأنه سيقابل من جديد كل شخصيات روايته. لا أستطيع أن أقول إن الشيء نفسه يحدث لي. حتى وإن مرت أعوام طويلة، فأنا لا أشعر بالسعادة وأنا أتحدث عن عائلتي، فلقد ظلت صورة أمي راسخة في ذاكرتي ومتخذة وضعا عدائيا كأنها سياف.

هذا الصباح، وأنا أحاول أن أضع مسافة بيني وبينها، بيني وبين ذكرياتي، ذهبت لأتنزه قليلا في الحديقة. كانت الأمطار قد سقطت طوال الليل، وكانت السماء صافية جهة الغرب، بينما كانت هناك سحب بنفسجية لاتزال خلف المنزل.

وقبل أن تعاود الأمطار هطولها من جديد عدت إلى الداخل. وعلى الفور هبت عاصفة، وكان الظلام يسود المنزل، وكان لا بد من إضاءة الأنوار. فصلت الكهرباء عن التليفزيون والثلاجة حتى لا يتعرضا للضرر بسبب الصواعق، ثم أخذت في يدي بطارية الجيب، وضعتها في جيبي وذهبت إلى المطبخ لأكمل لقاءنا اليومي.

ولكن بمجرد أن جلسـت، أدركت أنني لست مستعدة بعد، ربما كان فـي الهواء كثير من الشـحنات الكهربية، فقـد كانت أفكاري تتأرجـح كأنها ومضات، عندئذ نهضت ومع بوك الشـجاع خلفي تجولت قليلا في المنزل ولكن من دون هدف محدد.

ذهبـت إلـى الحجـرة التي كنـت أنام فيهـا مع الجـد، ثم إلى حجرتي الحالية - والتي كانت لوالدتِك - ثم إلى حجرة الطعام التي لم تعد تُستعمل الآن، وفي النهاية ذهبت إلى حجرتِك. وأنا أعبـر من غرفة إلى أخرى تذكرت شـعوري عندما دخلت إلى هذا المنـزل لأول مـرة لم يعجبنـي بالمرة. لم أكن أنا الـذي اخترته بل زوجي أوجوسـتو وهو أيضا اختاره في عجالة. كنا في حاجة إلى مـكان يؤوينـا ولم يكن يمكننا الانتظار ونظرا إلى حجمه الكبير ووجود الحديقة، بدا له أن هذا سيسد جميع احتياجاتنا.

منـذ اللحظـة التي فتحنـا فيها بوابته بدا لـي على الفور أن ذوقه سـيئ، بل أسـوأ الأذواق، فألوانه وأشـكاله لم يكن فيها جزء ينسـجم مع الآخر. إذا نظرت إليه من جهة سـيبدو لك كشـاليه سويسـري، ومن جهة أخرى - بالكرة الضخمـة المركزية، وواجهة السقف المدرجة - كان يمكن أن يكون أحد تلك المنازل الهولندية التي تطل على مجاري المياه. وإذا نظرت إليه من بعيد بمداخنه السـبع ذات الأشكال المختلفة كنت سـتفهمين أنه منـزل لا يمكن أن يوجد إلا في الحواديت.

بني هذا المنزل في العشـرينيات ولكن لم يكن هناك أي شـيء يمكـن أن يميزه كمنزل من ذلك العصر. وكان كونه من دون هوية هكذا يقلقني، فلقد اسـتغرقت سـنوات عديدة لأعتاد على فكرة

أنه منزلي، وأن وجود عائلتي مرتبط بجدرانه.

وبينما أنا في حجرتك سقطت صاعقة في مكان أقرب من الأخريات وسبب ذلك انقطاع الإضاءة. وبدلا من أن أضيء البطارية استلقيت على الفراش. وفي الخارج كانت الأمطار تهطل بغزارة، والرياح ترتطم بقوة، أما بالداخل فقد كانت الأصوات مختلفة، فرقعات متواصلة، طرقات بسيطة، وضوضاء الخشب الذي يستعيد وضعه، وبعينيّ المغلقتين بدا لي المنزل للوهلة كأنه سفينة، سفينة شراعية كبيرة تتقدم في البستان. هدأت العاصفة فقط في ساعة الغداء، ومن نافذة حجرتك رأيت فرعين كبيرين من شجرة الجوز قد سقطا.

أنا الآن في المطبخ من جديد، في موقعي الحربي، أكلت ثم غسلت الأطباق القليلة التي استخدمتها، بوك نائم أسفل قدميّ منهكا من انفعالات هذا الصباح. فكلما تقدم في السن أصابته تلك العواصف برعب يتخلص منه بصعوبة.

في الكتب التي ابتعتها عندما كنت تذهبين إلى الحضانة، وجدت مكتوبا في فترة ما أن اختيار العائلة الذي يولد فيها الإنسان مرتبط بطريقة أو بأخرى بدورة الحياة. يكون للمرء ذلك الأب أو تلك الأم، لأن ذلك الأب أو تلك الأم يسمحان لنا أن نفهم بطريقة أفضل، بأن نتقدم لخطوة بسيطة، بسيطة جدا.

عندئذ سألت نفسي، ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا يحدث أي تقدم في أجيال كاملة؟ لماذا بدلا من أن نتقدم نعود إلى الوراء؟

ومنذ وقت قريب، في الملحق العلمي لإحدى الصحف، قرأت

أنــه ربما لا يســير التطور كمــا تخيلنا نحــن، إن التغييرات، تبعا للنظريــات الأولى، لا تحدث بطريقة تدريجية، المخالب الأطول، أو المنقار ذو الشــكل المختلف للاســتفادة من مصدر غذائي آخر، لا تتشــكل تدريجيــا، ملليمترا بعــد ملليمتر، وجيــلا بعد جيل، ولكنهــا تظهــر فجأة، فمن الأم إلى الابن يتغير كل شــيء، يصبح كل شــيء مختلفا. وما يثبت ذلك هو العثــور على بقايا الهياكل العظيمة، والفكوك، والطبقات الأرضية والجماجم بما فيها من أســنان مختلفــة. ومن بــين أنواع كثيــرة، لم يعثروا على أشــكال وســيطة... فالجــد شــكل، والحفيــد شــكل مختلف تمامــا، وبين جيل وآخر حدثت طفرة. وماذا إذا كان الأمر كذلك بالنســبة إلى الحياة الداخلية للأشــخاص؟ فالتغييــرات تتراكم بهدوء، رويدا رويــدا، وفــي لحظــة مــا تنفجر. وفجــأة يخرج أحد الأشــخاص مــن الدائرة. ويقرر أن يصبح مختلفــا. القدر، العوامل الوراثية، التربية، حيث يبدأ شــيء، أين يجب أن ينتهي الآخر؟ إذا توقفت لمدة لحظة واحــدة للتفكير ســيصيبك على الفور الفزع بســبب الغموض الكبير الذي يحتويه كل هذا.

قبل زواجي بقليل قرأت لي عمتي - صديقة الأشباح - الطالع عن طريق أحد أصدقائها المنجمين.

ذات يــوم وجدتهــا أمامي وهي تمســك بورقة فــي يدها وقالت لــي: «هــذا هو مســتقبلك». فــي هذه الورقــة كان هنــاك تصميم هندســي، وكانت الخطــوط التي تصل علامة كوكــب بكوكب آخر تُكّون زوايا كثيرة، أتذكر أنني بمجرد أن رأيتها فكرت أنه لا يوجد تناغــم هنــا بالداخــل، لا توجد اســتمرارية، ولكن تتابــع قفزات،

ومنحدرات مفاجئة بطريقة تجعلها تبدو سقطات. وفي الخلف كتب المنجم: «مسيرة صعبة، يجب أن تتسلحي بكل الفضائل لتجتازيها حتى النهاية».

شعرت بصدمة شديدة، فحياتي حتى تلك اللحظة كانت تبدو لي تافهة جدا. كانت توجد بعض الصعوبات، ولكنها بدت لي صعوبات من لا شيء، لم تكن صعوبات جمة، كانت مجرد متاعب شبابية.

حتى بعد ذلك عندما أصبحت ناضجة، زوجة وأُما، أرملة ثم جدة، لم أتزعزع عن هذا المظهر المعتاد. الحدث الوحيد المفاجئ، إذا كنا نستطيع قول ذلك، هو الاختفاء التراجيدي لوالدتك. لكن إذا نظرنا جيدا، ففي العمق لم يكذب هذا الإطار التنجيمي، فخلف تلك الظواهر السطحية الصلبة والمحددة، خلف روتين حياتي اليومية كامرأة برجوازية، كانت توجد في الحقيقة حركة مستمرة، مصنوعة من بعض الطفرات، ومن بعض التمزقات، بعض فترات الظلام المفاجئ، وهُوّة عميقة جدا.

كان اليأس له عادة الغلبة في حياتي، كنت أشعر كأنني أحد هؤلاء الجنود الذين يسيرون وهم يدقون بخطاهم، ثابتين في المكان نفسه. فالزمن كان يتغير، والأشخاص كانوا يتغيرون، وكان كل شيء يتغير حولي، وكان لديّ انطباع بأنني مازلت ثابتة في موقعي. وقد كان موت أمكِ بمنزلة الضربة القاضية لهذه المسيرة المملة. كانت الفكرة المتواضعة التي أعرفها عن نفسي قد انهارت في لحظة واحدة. كنت أقول لنفسي إنني إذا كنت قد تقدمت حتى الآن خطوة أو خطوتين فالآن فجأة أقوم بالعودة

إلى الوراء، ووصلت في مسيرتي إلى نقطة البداية.

في تلك الأيام خشيت ألا أنجح أبدا في الخروج من هذا، وكان يبدو لي أن هذا الجزء الضئيل الذي أدركته من الأمور، حتى الآن، قد محي في ضربة واحدة. ولحسن الحظ لم أستطع أن أترك نفسي طويلا في حالة اليأس تلك، فقد استمرت الحياة في التقدم بمتطلباتها.

كانت الحياة هي أنتِ، لقد أسلمتكِ صغيرة، بلا حماية، وليس لديك شخص آخر في هذه الدنيا، لقد اقتحمتِ هذا المنزل الهادئ والحزين فجأة بضحكاتك المفاجئة، وببكائكِ.

عندما كنت أرى رأسَكِ الصغير وأنت طفلة يتأرجح بين المائدة والأريكة أتذكر أنني عندئذ أخذت أفكر أن كل شيء لم ينته بعد. المصادفة، بكرمها غير المتوقع، كانت قد أعطتني احتمالا آخر للنجاة.

«المصادفة». في إحدى المرات، قال لي زوج السيدة موربورجو إن تلك الكلمة لا وجود لها في اليهودية، فهم مجبرون - ليشيروا لشيء ما يتعلق بالمصادفة- على استخدام كلمة «مجازفة» ذات الأصل العربي. شيء غريب، أليس كذلك؟

شيء غريب لكنه أيضا مطمئن، فحيث يوجد الله لا يوجد مكان للمصادفة، ولا حتى للكلمة البسيطة التي تُعبر عنها.

كل شيء منظم، محكوم من أعلى، كل شيء يحدث لكِ، يحدث لأن له معنى. لطالما شعرت بالحقد الشديد على أولئك الذين يعتنقون تلك الرؤية للعالم من دون تردد، لاختيارهم هذا الهين.

فيما يخصني، وبكل النية الطيبة لم أنجح مطلقا في أن

أكتسب ذلك، ولمدة يومين متتاليين وأكثر، وأمام الرعب وعدم العدالة اللذين كنت أتعرض لهما، وبدلا من أن أبرر كل هذا بامتنان كان يولد دائما بداخلي شعور رهيب بالتمرد.

على كل حال أكاد أرتكب عملا عجيبا، مثل أن أرسل إليكِ بقبلة! كم تكرهين قبلاتي، أليس كذلك؟ كانت تتطاير على وجنتك ككُرات التنس. ولكن ليست لهذا أهمية، سواء أعجبكِ هذا أم لا سأرسل لكِ القبلة، ولن تستطيعي عمل أي شيء حيال هذا، إذ إنها في هذه اللحظة تطير فوق المحيط بخفة وشفافية.

أشعر بالتعب. لقد قرأت ما كتبته حتى هذه اللحظة بنوع من القلق. هل ستفهمين شيئا؟ أشياء كثيرة تتزاحم في رأسي، ولتخرج تتزاحم إحداهن مع الأخرى مثلما تفعل السيدات في موسم التخفيضات.

عندما أفكر لا أنجح مطلقا في إيجاد وسيلة أو خيط يسير في اتجاه منطقي من البداية إلى النهاية. من يدري؟! أحيانا أعتقد أنه ربما يحدث هذا لأنني لم أذهب قط إلى الجامعة. لقد قرأت العديد من الكتب وكنت فضولية تجاه أشياء، ولكن رأسي دائما منهمك في التفكير فيما يجب أن أغسله، وفيما يجب أن أطهوه، وفيما أشعر به.

إذا تنزه عالم نباتات في حديقة سيختار الأزهار بترتيب محدد، فهو يعلم ما يهمه وما لا يهمه على الإطلاق، يقرر ويتجنب ويقيم علاقات. ولكن إذا تنزه في الحديقة نفسها شخص متجول، سيختار الأزهار بطريقة مختلفة، إحداها لأنها صفراء، وأخرى لأنها زرقاء، والثالثة لأن رائحتها عطرة، والرابعة

لأنها على حافة المدق.

أعتقد أن علاقتي بالمعرفة كانت هكذا تماما. كانت أمك توبخني دائما على هذا. عندما كنا نواجه مناقشة معينة كنت أفشل على الفور، وكانت تقول لي: «ليس لديكِ جدلية ومثل كل الشخصيات البرجوازية لا يمكنك الدفاع بجدية عما تؤمنين به».

فكما يستحوذ عليك قلق وحشي بلا اسم، كانت الأيديولوجية تسيطر على والدتكِ.

بالنسبة إليها كان مجرد الحديث عن أشياء بسيطة بدلا من الأشياء العظيمة مصدر لوم. كانت تدعوني رجعية ومريضة بخيالات برجوازية، فتبعا لوجهة نظرها كنت غنية، وبالتالي فأنا أميل أكثر إلى المظاهر، والحياة الرغدة، وطبيعي بالتالي أن أميل إلى الشر.

ومن طريقة نظرتها إليّ أحيانا كنت واثقة بأنه لو كانت هناك محكمة للشعب، وكانت هي رئيسها لكانت حكمت عليّ بالموت. فكنت مذنبة لأنني أعيش في فيللا بدلا من أن أعيش في كوخ أو في شقة بإحدى الضواحي، وإلى هذا الذنب يمكن إضافة أنه كان لي ميراث يدر عليّ دخلا بسيطا كان يسمح لنا بأن نعيش. وحتى لا أرتكب أخطاء والدي نفسها، كنت أهتم بما تقول، أو على الأقل كنت أحاول ذلك، فلم أسخر منها مطلقا ولم أجعلها تفهم مطلقا كم هي بعيدة عن تفكيري الشامل. ولكن لا بد أنها كانت تدرك ارتيابي في عباراتها المصطنعة.

كانت إيلاريا تذهب إلى جامعة بادوفا. كان من الممكن جدا

أن تذهب إلى جامعة تريستي، ولكنه كان سيكون شيئا مؤلما جدا أن تستكمل حياتها بجواري. في كل مرة كنت أعرض عليها أن أذهب لأزورها كانت تجيبني بهدوء مملوء بالعداوة. كانت دراستها تسير ببطء شديد، لم أكن أعلم مع من تقتسم السكن، ولم ترغب مطلقا في إخباري بذلك.

ونظرا إلى أنني كنت أعرف ضعفها كنت قلقة. كانت هناك الاضطرابات الفرنسية، والجامعات المحتلة، والحركة الطلابية. وأنا أستمع إلى أخبارها في التليفون أدركت أنني لن أنجح مطلقا في أن أتابعها، كانت دائما متحمسة لشيء ما، وهذا الشيء كان يتغير باستمرار.

وكنت أحاول أن أفهمها وأنا أقوم بدوري كأم، ولكن كان هذا غاية في الصعوبة، كان كل شيء يتقلص، يهرب، كان هناك الكثير من الأفكار الجديدة، مفاهيم مُجردة عديدة. وبدلا من أن تتحدث بعباراتها الخاصة كانت إيلاريا تُدخل شعارا يتبعه آخر. كنت أخشى على توازنها النفسي، فشعورها بوجودها في مجموعة تشارك معها إيمانها وتلك العقائد نفسها المطلقة، كان يقوي بطريقة مقلقة ميلها الطبيعي إلى الغطرسة.

في عامها السادس في الجامعة، شعرت بالقلق بسبب فترة انقطاع طويلة، أخذت القطار وذهبت لزيارتها. ومنذ أن ذهبت إلى بادوفا لم أفعل ذلك مطلقا. بمجرد أن فتحت الباب أصابني الذهول. بدلا من أن تصافحني صرخت في وجهي: «من الذي دعاك؟». ومن دون حتى أن تمنحني الفرصة لأجيبها أضافت: «كان يمكنك أن تخبريني، لقد كنت على وشك الخروج، هذا

الصباح لديّ امتحان مهم». وكانت لاتزال ترتدي ثياب النوم، وكان واضحا أنها تكذب. تظاهرت بأنني لم أنتبه لذلك وقلت لها: «مهلا، هذا يعني أنني سأنتظركِ ثم نحتفل بالنتيجة معا». وبعد ذلك بقليل، خرجت بالفعل بسرعة شديدة حتى أنها تركت كتبها على المائدة.

وعندما مكثت وحدي بالمنزل فعلت ما يمكن أن تفعله أي أم، أخذت أبحث في أدراجها، كنت أبحث عن علامة، أي شيء يساعدني على أن أعرف الاتجاه الذي إليه سارت حياتها. لم أكن أنوي التجسس عليها، أو أن أقوم بعمل الرقابة أو محاكم التفتيش، لم تكن هذه الأشياء جزءا من طباعي على الإطلاق. فقط كنت أشعر بقلق شديد ولأسكنه كنت في حاجة إلى أي نقطة اتصال. بخلاف بعض المنشورات ومطبوعات للدعاية الثورية، لم يقع في يدي أي شيء آخر، لم أجد أي خطاب أو حتى نوتة مذكرات.

على أحد حوائط حجرة نومها وجدت صورة ملونة كبيرة مكتوبا عليها: «إن العائلة مملوءة بالهواء، ومصدر تهديد مثل غرفة الغاز». وكان هذا يعني شيئا ما.

وعادت إيلاريا مبكرا في أول الظهيرة، وكان يبدو عليها الإعياء كما كانت عندما خرجت.

سألتها بأكثر النبرات حنانا: «كيف كان الامتحان؟»

هزت كتفيها: «مثل كل الامتحانات»، وبعد وقفة أضافت: «ألهذا أتيتِ، لتراقبيني؟». كنت أريد تجنب الصدام، وهكذا أجبتها بنبرة هادئة ومريحة أنني كانت لديّ رغبة واحدة فقط وهي أن نتحدث قليلا معا.

كررت بقسوة: «نتحدث؟ عن ماذا؟ عن مشاعرك الصوفية؟».

عندئذ أجبتها بصوت منخفض وأنا أحاول النظر إلى عينيها: «عنك أنت يا إيلاريا». اقتربت من النافذة، وكانت تركز نظرها على شجرة صفصاف ذابلة قليلا: «ليس لديّ شيء لأقوله لك، على الأقل ليس لك أنت. لا أريد أن أضيع وقتي في ثرثرات عائلية ذات طابع برجوازي». ثم نقلت عينيها من شجرة الصفصاف إلى النظر إلى ساعة المعصم وقالت: «الوقت متأخر ولديّ اجتماع مهم، يجب أن ترحلي».

لم أطعها، نهضتُ ولكن بدلا من أن أخرج ذهبتُ إليها، وأخذت يديها بين يديّ وسألتها: «ماذا حدث؟ ماذا يؤلمك؟» وشعرت بأنفاسها تتصارع.

فأضفت: «إن رؤيتك في هذه الحالة تؤلمني، حتى إذا رفضت أمومتي أنا لا أرفض بنوتك. أريد أن أساعدك، وإذا لم تقتربي مني لن يمكنني ذلك». عند هذه اللحظة بدأ ذقنها يرتعد كما كانت تفعل وهي طفلة على وشك البكاء، نزعت يديها من بين يديّ واستدارت فجأة تجاه الزاوية. واهتز جسدها الرفيع والمنكمش في نحيب عميق. ربتّ على شعرها، وعلى الرغم من أن يديها كانتا باردتين فإن رأسها كان يغلي. واستدارت فجأة، واحتضنتني وقالت ووجهها مختبئ فوق كتفي: «أمي... إنني... إنني...».

وفي هذه اللحظة عينها دق جرس التلفون.

همست في أذنها: «اتركيه يرن...».

أجابتني وهي تمسح دموعها: «لا أستطيع...».

عندما رفعت سماعة التلفون عاد صوتها من جديد ليصبح فارغا

غريبا. ومن الحديث المختصر أدركت أنه لا بد قد حدث شيء خطير.
وفي الواقع قالت لي على الفور بعدها: «يؤسفني، يجب أن تتصرفي فعلا». خرجنا معا، وعلى الباب تركت نفسها لحضن سريع يشوبه شعور بالذنب. همست وهي تضمني بقوة: «لا يمكن لأحد أن يساعدني». اصطحبتها إلى دراجتها المربوطة في عامود على بعد قريب. وكانت بالفعل فوق مقعد العجلة عندما قالت وهي تضع إصبعين أسفل عقدي: «اللآلئ، أليس كذلك، إنها جواز سفرك منذ أن ولدتِ لم تستطيعي أن تتحلي بالشجاعة وتسيري خطوة دونها».
على الرغم من مرور سنوات عديدة فإن هذا الحدث في حياتي مع والدتك هو أكثر حدث أتذكره، إني أفكر فيه دائما. أقول لنفسي: هل من الممكن بين كل الأشياء التي عشناها معا أن يكون هذا الحدث أولى الذكريات التي تظهر أمامي؟
واليوم بالذات، بينما أسأل نفسي هذا السؤال للمرة الألف، تذكرت المثل القائل: «من فضله القلب يتكلم اللسان». وستسألين نفسكِ، ولكن ما دخل هذا؟ له دخل كبير جدا. هذا الحدث يعود دائما إلى ذاكرتي لأنه الوحيد الذي استطعت فيه أن أحدث تغييرا.
لقد انفجرت أمك في البكاء، لقد أخذتني بين ذراعيها، في تلك اللحظة فتحت كوة في درعها، فتحة ضيقة صغيرة استطعت أنا الدخول من خلالها. وبمجرد دخولي كان يمكنني أن أفعل مثل تلك المسامير التي تمتد بمجرد دخولها الحائط، ورويدا رويدا يكتسب مكانا أكبر. وكان يمكنني أن أتحول إلى نقطة ثابتة في حياتها. لأفعل ذلك كان لا بد أن تكون قبضتي قوية. عندما قالت

لي: «يجب أن ترحلي» كان عليّ البقاء. كان يمكنني عندئذ أن آخذ حجرة في فندق قريب وأن أعود كل يوم لأطرق على بابها، وأن أصر حتى تتحول هذه الكوة إلى بوابة، ولم يكن يبقى على ذلك الكثير، كنت أشعر بذلك.

بيد أنني لم أفعل ذلك، بسبب خوف أو كسل أو شعور مزيف بالخجل أطعت أمرها. كنت أكره اقتحام أمي، وكنت أريد أن أكون أما مختلفة، وأن أحترم حرية حياتها.

وخلف قناع الحرية عادة ما يختبئ عدم الاهتمام، والرغبة في عدم التدخل. هناك خيط رفيع جدا، ولعبوره لا يستغرق الأمر إلا لحظة واحدة، بين اتخاذ قرار وعدم اتخاذه، ولا يمكن أن تدركي أهمية هذا القرار إلا بعد أن تمر هذه اللحظة، عندئذ فقط تشعرين بالندم، عندئذ فقط تدركين أن الأم لم يكن يتطلب حرية بل اقتحاما، كنت موجودة، كنت مدركة، ومن هذا الإدراك كان يجب أن يولد الإلزام بالتصرف. إن الحب لا يناسب الكسالى، حتى يوجد بملئه، يتطلب أحيانا تصرفات محددة وقوية. أتفهمين؟!

لقد أخفيت خستي وكسلي أسفل الرداء النبيل للحرية.

إن فكرة القدر هي فكرة تأتي مع التقدم في السن، عندما يكون المرء في سنك عادة لا يفكر في هذا. كل شيء يحدث يراه على أنه ثمرة إرادته الخاصة. تشعرين كأنك عامل يضع حجرا فوق حجر ليبني أمامه الطريق الذي يجب أن يجتازه. فقط بعد فترة تدركين أن الطريق ممهد بالفعل. هناك شخص آخر قد خطه بدلا منك، وليس عليك سوى التقدم إلى الأمام. إنه اكتشاف يحدث فقط في سن الأربعين، عندئذ تبدئين في إدراك أن الأشياء

لا تتوقف عليك أنت فقط. إنها لحظة خطيرة، أثناءها يمكن بسهولة الانزلاق في خوف مدمر من الأماكن المغلقة.

ولترين القدر بحقيقته الكاملة يجب أن تمر بضعة أعوام أخرى.

وفي سن السبعين، عندما يكون الطريق خلفك أطول مما هو أمامك، ترين شيئا لم تريه من قبل، إن الطريق الذي اجتزته لم يكن طريقا مستقيما لكنه مملوء بالمفترقات، في كل خطوة كان هناك سهم يشير إلى اتجاه مختلف، من هنا يبدأ طريق، ومن هناك طريق صغير مملوء بالأعشاب يختفي في الغابات.

ربما يكون أحد تلك الطرق المنحرفة قد ابتلعتك من دون أن تدركي، ولم تري الأخرى، وتلك التي أهملتِها لم تعرفي إلى أين كان يمكنها أن تقودك، إذا كان ذلك المكان سيكون أفضل أم أسوأ، وعلى الرغم من أنك لا تعرفين هذا إلا أنك مع ذلك تندمين. فلقد كان يمكنك عمل شيء ولم تفعليه، لقد عدت إلى الوراء بدلا من التقدم إلى الأمام. لعبة الأوزة، أتتذكرينها؟ إن الحياة تسير إلى الأمام بالطريقة نفسها.

وطوال مفترقات طريقك تقابلين حيوات أخرى، ويعتمد فقط على اختيارك اللحظي إذا كنت ستتعرفين عليها أم لا، وإذا كنت ستعيشينها لعمقها أم ستتركينها، حتى إذا كنت لا تعرفين ذلك، فإن بين تقدمك إلى الأمام أو انحرافك عادة ما يؤثر وجود من يكون بالقرب منك في وجودك أيضا.

22 نوفمبر

هذه الليلة تغير الطقس، هبت الرياح من الشرق، وخلال بضع ساعات فرقت جميع السحب. قبل أن أبدأ الكتابة تنزهت قليلا في الحديقة. مازالت الرياح تهب بقوة، وتتسلل أسفل الثياب. كان بوك مرحا، كان يريد أن يلعب، كان يهرول بجواري وفي فمه ثمرة صنوبر. استطعت بقواي القليلة المتبقية أن أقذفها له مرة واحدة فقط، قفز قفزة قصيرة جدا، ولكن هذا أسعده على أي حال. وبعد أن فحصت الحالة الصحية للوردة ذهبت لأصافح شجرة البندق، والكرز وأشجاري المفضلة.

أتتذكرين كم كنت تسخرين مني عندما كنت ترينني أمامك أربت على الجذوع؟ كنت تقولين لي: «ماذا تفعلين؟ إن هذا ليس ظهر حصان». وعندما كنت بعد ذلك أشير إليك بأن لمس أحد الأشجار لا يختلف مطلقا عن لمس أي كائن حي آخر، بل إنه أفضل، كنت ترفعين كتفيك وتبتعدين غاضبة. ولماذا أفضل؟ لأنني إذا قمت، على سبيل المثال، بالتربيت على رأس بوك أشعر بشيء دافئ، مرتجف، ولكن في هذا الشيء توجد دائما إثارة طفيفة، إنه وقت الحساء، الذي اقترب جدا أو ربما العكس، إنه

الحنين إليك، أو ربما يكون مجرد ذكرى حلم سخيف. أتفهمين؟

والكلب، مثل الإنسان، توجد لديه أفكار كثيرة، ومتطلبات أكثر، والوصول إلى الهدوء وإلى السعادة لا يتوقف عليه هو فقط.

أما في الشجرة فالأمر مختلف. فمنذ أن تنمو حتى تموت تقف ثابتة في المكان نفسه، فبجذورها تقترب من الأرض أكثر من أي شيء آخر، وبأوراقها هي أكثر شيء يقرب السماء، عصارتها تجري بداخلها من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، وتتمدد وتنكمش تبعا لضوء النهار. تنتظر الأمطار، وتنتظر الشمس، تنتظر موسما وتنتظر آخر بعده، تنتظر الموت. لا شيء مما يسمح لها بالحياة يعتمد على إرادتها. إنها توجد فقط، أتفهمين الآن لماذا يكون التربيت عليها شيئا جميلا؟.

لصلابتها، لنفسها الطويل، الهادئ والعميق.

في منزل طفولتي كانت هناك شجرة بلوط واحدة، كانت كبيرة جدا إلى حد أنه كان يلزم وجود شخصين لاحتضان جذعها بالكامل. وبالفعل في سن الرابعة أو الخامسة كان الذهاب لزيارتها يسعدني.

كنت أجلس هناك، وأشعر بجفاف الأعشاب من تحتي، والرياح الباردة بين شعري وفوق وجهي. كنت أتنفس وكنت أعلم أن هناك نظاما علويا للأشياء، وأنني مع كل ما أراه بداخل هذا النظام - حتى إن لم أكن أعرف الموسيقى - كان هناك شيء يغني بداخلي. لا أعرف كيف أقول لك عن نوع الموسيقى الموجودة، لم يكن هناك قرار معين ولا حتى نغمة معينة. بل إنه كان بالأحرى كمنفاخ الحداد يدفع إيقاعا منتظما وقادرا. في المنطقة القريبة

مـن قلبـي وعقلـي، كان يبعـث ضوء عظيـم، ضـوء ذو طبيعتين، إحداهمـا الطبيعة الضوئية، والأخرى الطبيعة الموسـيقية. كنت سعيدة بوجودي، وبخلاف هذه السعادة لم يكن هناك شيء آخر.

ربما يبدو لك أمرا غريبا أو مبالغا فيه أن يشـعر طفل بشـيء كهـذا. فنحن للأسـف معتادون علـى اعتبار فتـرة الطفولة فترة افتقـار البصيـرة، وليس كأكثر الفترات ثـراء. ولكن يكفي النظر بانتباه إلى عيني مولود جديد حتى ندرك أن الأمر كذلك.

هـل سـبق لـك أن فعلـت ذلـك؟ جربـي هـذا إذا أتيحـت لكِ الفـرصة.

انزعـي أحكامـك المسـبقة من رأسـك وراقبيـه بانتبـاه. كيف يَنظـر؟ هـل نظرته فارغة، لا تدرك شـيئا؟ أم عتيقة، بعيدة جدا وحكيمة؟ إن الأطفال لديهم بطبيعتهم روح أطول فقدناها نحن الكبار ولا نسـتطيع أن نقبلها. في سـن الرابعة أو الخامسـة من عمري لم أكن أعرف شيئا عن الدين، وعن الله وعن البلبلة التي صنعها البشر عند الحديث عن هذه الأمور.

أتعلمـين أنـه عندما تحتـم عليّ أن أختار إذا كنـت أوافق على متابعتك سـاعات الدين في المدرسة أم لا، ترددت كثيرا في اتخاذ قرار.

مـن جهـة تذكرت كـم كانت علاقتـي مـع العقائد أمرا أشـبه بالكارثة، ومن جهة أخرى كنت واثقة تمام الثقة بأنه في التربية يجب التفكير أيضا في الناحية الروحية وليس الناحية العقلية فقـط. ولكـن الحـل فرض نفسـه، في اليـوم الذي مـات فيه أول صراصيـرك الليلية. أمسـكتِ به بين يديك ونظـرتِ إليّ مرتبكة

وسألتني: «أين هو الآن؟»

أجبتك وأنا أردد سؤالك: «في رأيك أين هو الآن؟!» أتتذكرين بماذا أجبتني؟ إنه في مكانين. هنا حينا، وبين السحاب أحيانا أخرى».

وفي تلك الظهيرة نفسها قمنا بدفنه وإقامة جنازة صغيرة له. وتلوتِ - وأنت راكعة أمام مدفنه الصغير - صلاتك: «كن سعيدا يا توني، يوما ما سنلتقي من جديد».

ربما لم أذكر ذلك من قبل، ولكن سنواتي الدراسية الخمس الأولى كانت لدى الراهبات، في مدرسة القلب المقدس.

صدقيني، إن هذا لم يكن بالضرر الهين لعقلي الذي كان مرنا بهذه الطريقة. في مدخل المدرسة كانت الراهبات يحتفظن بمغارة كبيرة مُقامة طيلة العام الدراسي. كان بها المذود، والبقرة والحمار الصغير وحوله جبال ومنحدرات من الورق المقوى يسكنها قطعان الخرفان فقط. كل خروف كان يرمز لتلميذة، وفق سلوكها طيلة اليوم كانت تقترب أو تبتعد من المذود يسوع.

في كل صباح وقبل أن نذهب إلى الفصول كنا نعبر من هناك، وبالتالي كنا مجبرات على أن ننظر إلى أوضاعنا. من الجهة المقابلة للمذود كانت هناك هوة عميقة، توضع فيها الأكثر «شقاوة»، بقدمين معلقتين في الفضاء. ومنذ سن السادسة حتى العاشرة عشت وأمري معلق على الخطوات التي يقوم بها حملي الصغير، ولا فائدة أن أقول لك إنه لم يتحرك قط تقريبا من حافة الهوة.

بداخلي، وبكل إرادتي، كنت أحاول أن أحترم الوصايا التي

املوها عليّ. كنت أفعل ذلك مدفوعة بتلك النزعة الطبيعية للتكيف الموجودة عند الأطفال، وليس لهذا السبب وحده، فقد كنت مقتنعة بالفعل بأننا يجب أن نكون ودعاء، يجب ألا نكذب، وألا نتباهى بما لدينا. على الرغم من ذلك كنت دائما على وشك السقوط. لماذا؟ بسبب أشياء لا تُذكر.

وفي كل مرة كنت أذهب باكية لرئيسة الدير وأسألها عن سبب تغيير المكان فكانت تجيبني: «لأنكِ بالأمس كنت ترتدين شريطة شعر ضخمة جدا... لأن إحدى صديقاتك سمعتك وأنت تغنين عند خروجك من المدرسة... لأنكِ لم تغسلي يديك قبل الجلوس على مائدة الطعام». أتفهمين؟ مرة أخرى كان السبب أخطاء خارجية، تماما مثلما كانت تتهمني أمي. ما كنت أتعلمه لم يكن الصدق مع النفس بل التظاهر.

ذات يوم، وعندما وصلت إلى أقصى حدود الهوة، انفجرت في النحيب قائلة: «ولكنني أحب الرب». عندئذ أتعرفين ماذا قالت لي الراهبة التي كانت تقف بالقرب من المكان: «آه، بجانب أنك مهملة فأنت أيضا كاذبة، إذا كنت تحبين الرب فعلا لكنت احتفظت بكراريسك بطريقة أكثر نظاما». ودفعت بسبابتها خروفي إلى أسفل في الهوة. بعد هذا الحدث، أعتقد أنني لم أنم بعدها لمدة شهرين كاملين.

فبمجرد ما كنت أغلق عينيّ كنت أشعر بأن قماش المرتبة أسفل ظهري يتحول إلى نيران، وكنت أستمع بداخلي إلى أصوات رهيبة تعبس وتقول: «انتظري، الآن سنأتي لنأخذك». وبالطبع لم أقص أي شيء على والديّ. وعندما كانت أمي تراني

شاحبة وعصبية كانت تقول: «إن الطفلة مصابة بضعف شديد» وأنا من دون أن أتنفس كنت أبتلع ملاعق من الأدوية المقوية.

من يدري كم شخصا حساسا وذكيا ابتعد إلى الأبد عن كل المعتقدات الروحية بفضل أحداث مثل هذه. كل مرة كنت أسمع فيها شخصا يقول: كم كانت سنوات المدرسة جميلة، ويشعر بالحنين إليها أشعر بالاندهاش.

كانت تلك الفترة بالنسبة إلي إحدى أسوأ فترات حياتي، بل ربما تكون هي الأسوأ على الإطلاق بسبب الشعور بالعجز الذي سادها. في فترة التعليم الابتدائي بأكملها كنت مضطربة بشدة بسبب رغبتي في أن أكون مخلصة لما أشعر به بداخلي ورغبتي في أن أندمج مع ما يعتقده الآخرون، وإن كنت أشعر بزيفه.

شيء غريب. ولكن بمعايشتي مرة أخرى الآن انفعالات تلك الفترة لدى الانطباع أن كارثتي الكبرى أثناء النمو لم تحدث - كما تحدث دائما- في سن المراهقة، ولكن في سنوات الطفولة تلك. في الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمري كنت قد وصلت بالفعل إلى نوع من الاستقرار الحزين. فالأسئلة العظيمة عما وراء الطبيعة ابتعدت رويدا رويدا لتترك فراغا لخيالات جديدة وساذجة.

كنت أذهب إلى القداس يوم الأحد وفي فترة الأعياد مع أمي، كنت أركع بتأثر في أثناء التناول، ولكن في أثناء ذلك كنت أفكر في أشياء أخرى، كانت تلك إحدى الوصفات الصغيرة التي كان عليّ التظاهر بها حتى أعيش في هدوء.

ولذلك لم أجعلك تنضمين إلى ساعة التعليم الديني، ولم

أندم قط على أنني فعلت ذلك. عندما كنت تطرحين الأسئلة عن هذا الموضوع وبسبب فضولك الطفولي، كنت أحاول أن أجيبك بطريقة مباشرة وفرحة، وأنا أحترم السر الموجود بداخل كل منا. وعندما لم تطرحي عليّ المزيد من الأسئلة، توقفت نا بهدوء عن التحدث عن ذلك. في هذه الأشياء لا يمكن الدفع أو الشد، وإلا سيحدث الشيء نفسه الذي يحدث للباعة المتجولين، فكلما حاولوا ترويج بضاعتهم ازدادت الشكوك بأنها مجرد خدعة.

معك، حاولت فقط ألا أطفئ ما كان موجودا بالفعل، أما لما بعد ذلك فلقد أخذت أترقب ما سيحدث.. ولكن لا تعتقدي أن طريقي كان بهذه البساطة، حتى إن كنت في سن الرابعة كنت قد عرفت الروح التي تحيط بالأشياء، ففي سن السابعة كنت قد نسيتها تماما. في البداية كنت مازلت أستمع إلى الموسيقى، كانت كالخلفية البعيدة، لكنها كانت موجودة، كانت تبدو كتيار في مضيق جبلي، إذا مكثت ساكنة ومنتبهة، كان يمكنني أن أستمع إليها. ثم تحول التيار إلى مذياع قديم، مذياع على وشك أن يتوقف. فقد كانت النغمات تتفجر بقوة شديدة في لحظة ما، وفي اللحظة التالية كان كل شيء يختفي.

لم يكن والداي يفوتان الفرصة ليوبخاني على عادة الغناء. بل إنني في إحدى المرات، وفي أثناء الغداء، تلقيت صفعة - أول صفعة تلقيتها - لأنه أفلتت مني نغمة «ترلالا». قال أبي بصوت رعد: «لا أحد يغني على مائدة الطعام». وأعقبت أمي «لا أحد يغني سوى المطربين». أما أنا فكنت أبكي وأنا أردد بين دموعي: «ولكن هناك شيئا ما يغني بداخلي». أي شيء يبتعد عن العالم

المادي الملموس كان غير مفهوم تماما بالنسبة إلى والديّ. كيف كان يمكنني إذن أن أحافظ على نغماتي؟ كان يجب أن يكون لي قدر أحد القديسين على الأقل. ولكن قدري كان ذلك القدر القاسي المعتاد.

رويدا رويدا اختفت الموسيقى ومعها اختفى شعور الفرح العميق الذي صاحبني في سنواتي الأولى. أتعرفين، أكثر شيء حزنت عليه هو شعوري بالفرح. بالتأكيد بعد ذلك شعرت أيضا بالسعادة، ولكن السعادة بالنسبة إلى الفرح كالمصباح الكهربائي بالنسبة إلى الشمس. فالسعادة يكون لها دائما سبب، نكون سعداء من شيء ما، إنه شعور يعتمد وجوده على مؤثر خارجي. ولكن الفرح يكون بلا سبب، يتملكك من دون أي سبب ظاهر، يشبه الشمس في وجوده، ويحرق بفضل اشتعال قلبه.

وبمرور الأعوام تخليت عن ذاتي، عن أعمق جزء فيّ، لأصبح شخصا آخر، ذلك الذي كان أراد أبواي أن أكونه.

تركت شخصيتي لأكتسب طباعا- والطباع- ويمكنني إثبات ما سأقوله، تنال تقدير الجميع أكثر بكثير من الشخصية. ولكن الطباع والشخصية - على عكس ما هو معروف- لا يتفقان بل في أكثر الأحيان يستبعد أحدهما الآخر بصورة نهائية.

فمثلا كان لأمي طبع حاد، كانت واثقة بكل تصرفاتها، ولم يكن هناك أي شيء، أي شيء مطلقا، يمكنه أن يهز هذه الثقة. أما أنا فكنت عكسها تماما. ففي الحياة اليومية لم يكن هناك أي شيء يحثني على التغير. فأمام كل اختيار كنت أتردد طويلا، كنت أفكر طويلا حتى إن من يقف بجواري في النهاية

يتخذ القرار بدلا مني بعد نفاد صبره.

ولا تظنــي أن تــرك الشــخصية للتظاهر بوجــود طبع- تطور طبيعــي، فقد كان هناك شــيء بداخلي يســتمر فــي التمرد، كان هنــاك جــزء يتمنى أن أحتفــظ بكياني، بينمــا كان الجزء الآخر يريــد أن يتأقلم مع متطلبــات العالم حتى يكون محبوبا. يا لها من حرب قاسية!

كنــت أكــره أمــي، وطريقتهــا الســطحية فــي التصــرف، كنت أكرههــا ولكــن ببــطء - وضد رغبتــي- كنت على وشــك أن أصبح مثلهــا تماما. هذا هو الابتزاز الضخم والبشــع في التربية، ذلك الــذي لا مفــر منه مطلقــا. فلا يوجــد طــفل يســتطيع الحياة بلا حب، ولهذا السبب يحاول المرء التعود على النموذج المطلوب منه. حتى إن كان لا يعجبك بالمرة، حتى إن كنت تجدينه خاطئا. وتأثير تلك الآلية لا يختفي مع الوصول للنضج.

فبمجــرد أن تصبحــي أما يظهر من جديــد من دون أن تدركي هــذا، ويؤثر من جديد في تصرفاتــك. وهكذا عندما ولدتُ أمك، كنــت متأكــدة تماما أنني ســأتصرف بطريقة مختلفــة، وبالفعل فعلــت ذلك، ولكــن هذا الاختــلاف كان ســطحيا ومزيفا. وحتى لا أفــرض نموذجــا على أمك، كمــا فُرض عليّ في وقــت ما، كنت أتركهــا حرة فــي اختياراتها، كنت أريدها أن تشــعر بالموافقة على كل تصرفاتها، ولم أكن أفعل شــيئا ســوى أن أردد: «إننا شــخصان مختلفان، ويجب أن يحترم كل منا اختلاف الآخر».

كان هنـاك خطأ في كل هذا، خطأ فادح. أتعلمين ماذا كان، كان غيــاب هــويــتي، حتــى إن كنــت قــد أصبحت ســــيدة ناضــجة،

لم أكن واثقة بشيء. لم أنجح في أن أحب ذاتي، وأن أقدرها. ويفضل الحساسية الرقيقة والانتهازية التي يتميز بها الأطفال، أدركت أمك هذا على الفور، شعرت بأنني كنت ضعيفة وهشة وسهلة الاستفزاز. والصورة التي تحضر إلى مخيلتي عندما أفكر في علاقتنا هي صورة الشجرة والنبات المتسلق.

فالشجرة متقدمة في السن، وغالبة، تقف هناك منذ فترة وجذورها أعمق. ويظهر النبات عند أقدامها في فصل واحد، وتكون له ألياف وخيوط أكثر من الجذور، وأسفل كل خيط لديه محاجم صغيرة، وبتلك المحاجم يتسلق الجذع. وبمرور عام أو عامين يصل إلى قمة العرف. وبينما يفقد مضيفه الأوراق، يحتفظ النبات بلونه الأخضر ويستمر في الانتشار، وفي التأصل، ويغطيه بالكامل، وتصل إليه هو فقط أشعة الشمس والمياه. وعندئذ تجف الشجرة وتموت، ويبقى الجذع فقط في أسفل كدعامة بائسة للنبات المتسلق.

بعد موتها المأساوي، لم أفكر فيها لسنوات عديدة، أحيانا كنت أدرك أنني نسيتها، وكنت أتهم نفسي بالقسوة.

هذا هو الدافع الحقيقي، أو ربما كان هذا حقيقيا جزئيا كان الشعور بالهزيمة أكبر من احتمالي. فقط في السنوات الأخيرة، عندما بدأتِ أنت في الابتعاد، والبحث عن طريقك، عاد تفكيري في أمك إلى ذاكرتي، وبدأ يستحوذ عليّ. وكان أكبر ألم هو أن الشجاعة لم تواتني قط لمواجهتها، وأنني لم أقل لها مطلقا: «لقد أخطأتِ الطريق، إنك ترتكبين حماقة». كنت أشعر بأنه كانت توجد شعارات خطيرة جدا في مناقشتها: أشياء - كان

علـيّ لمصلحتهـا - أن أنزعها على الفور. بيد أنني كنت أمتنع عن التدخل. ولم يكن للتراخي دخل في هذا. فلقد كانت الأمور التي تتناقش فيها أساسية.

إن مـا كان يدفعنـي إلى تصرف ما أو يمنعنـي عنه كان هو ما تعلمتـه من أمّـي. فلكي أكـون محبوبة عليّ أن أتجنّـب الصدام، وأن أتظاهر بعكس حقيقتي. كانت إيلاريا بطبعها مسيطرة، كان لديها طبع أقوى وكنت أخشـى المواجهة، وكنت أخشـى المعارضة. إذا كنت أحببتها بالفعل، كان عليّ أن أسـخط عليها، أن أعاملها بقسـوة، كان عليّ إجبارها أن تفعل أشـياء أو أن أمنعها عن أشياء أخـرى. ربمـا كان هذا ما كانت تريده تماما، وكان هذا ما تحتاجه فعلا.

مـن يـدري؟ لماذا يصعب فهم الحقائـق البديهية؟ إذا كنت قد فهمت عندئذ أن أولى صفات الحب هي القوة، ربما كانت الأحداث ستنتهي بطريقة مختلفة. ولكن لكي نصبح أقوياء يجب أن نحب أنفسنا، ولكي نحب أنفسنا يجب أن نعرفها في عمقها، نعرف كل شـيء عنها، حتى الأشـياء المخفيـة، أصعب الأشـياء التي يمكن قبولهـا. كيـف يمكن تحقيق تطـوّر كهذا بينما الحيـاة بصخبها تدفعـك إلـى الأمام؟ يمكـن أن يفعل هذا مـن البداية فقط من لديه مواهب غير عادية.

بالنسـبة إلـى المخلوقـات الفانيـة، لمن هم مثلـي، ومثل أمك، لا يبقى سـوى قـدر الأفـرع والزجاجات البلاسـتيك: يقذف بك أحدهم أو تقذف بك الرياح فجأة في مجرى أحد الأنهار. وبفضل المعـدن الـذي أنـت مصنوعة منـه تطوفين بدلا مـن أن تغوصي،

وعندئـذ يبدو لك هـذا انتصارا بالفعل وهكـذا، تبدئين فورا في الجري، وتنزلقين بسـرعة في الاتجـاه الذي إليه يحملك التيار، ومـن حين إلى آخر، وبسـبب مجموعة جـذور أو بعض الأحجار، يجبرك شيء ما على التوقف. تقفين هناك لفترة، تلطمك المياه ثـم ترتفع وتحررك، تذهبين إلى الأمام مـن جديد، عندما يكون المسـار المائي هادئا تقفين طافية ولكن عندما تسرع المياه تجدين أنكِ غصتِ؟ لا تعرفين إلى أين أنت ذاهبة بل لا تسـألين نفسـك مطلقا عن هذا.

فـي اللحظات الأكثر هدوءا تتمكنين من رؤية المناظر حولك: الحواجز الجبلية، الأدغال، ترين الأشكال أكثر من التفاصيل، نوع الألوان، ثم تصبح سرعتك أكبر فلا ترين أي شيء آخر، ثم بمرور الوقـت والكيلومتـرات، تبـدأ الحواجز الجبلية فـي الانخفاض، ويبـدأ النهر في الاتسـاع، مازالـت هناك الحـواف ولكنها قليلة. عندئذ تسـألين نفسك: «أين أنا ذاهبة؟». في تلك اللحظة يُفتح النهر أمامك.

جزء كبير من حياتي كان بهذه الطريقة: أصارع المياه بحركات غيـر واثقـة ومرتبكة بـدلا من أن أسـبح. من دون لياقـة أو فرح، نجحت فقط في أن أظل طافية على وجه المياه.

لمـاذا أكتـب لك هذا كله؟ ماذا يعني ذلـك الاضطراب الطويل والخـاص جدا؟ ربما تكونين قـد اكتفيتِ في هذه اللحظة، وربما تكونين تصفحت صفحة تلو الأخرى وأنت تتأففين وربما تسألين نفسك، أين تريدين الذهاب، وإلى أين تريدين اصطحابي؟

حقا، ففي أثناء الحديث عادة ما أخرج عن الموضوع الرئيسي:

فبـدلا مـن أن أتخذ الطريق الرئيسـي، كثيرا وعـن طيب خاطر، أدخـل حارات ضيّقة. أعطي بذلـك الانطباع بأنني ضائعة وربما لا يكـون ذلك مجـرد انطباع، فلقد فقدت الطريق بالفعل. ولكن هل هذا هو الطريق الذي يتطلبه ذاك طالما بحثت عنه: المركز.

أتتذكرين عندما كنت أعلمك طهي الكريب؟

كنت أقول لك، عندما ترفعينه في الهواء: «يجب أن تفكري في كل شيء فيما عدا حتمية سقوطها مباشرة في الحلة، فإن ركزت فـي فتـرة الطيـران يجب أن تتأكدي أنها ستسـقط أو ستُسـحق على الفور في نيران الموقد.

شـيء غريـب، ولكـن الحقيقة هي أن عـدم التركيـز هو الذي يجعلنا نصل إلى مركز الأشياء، إلى قلبها.

الآن أخـذت معدتـي مـكان قلبـي فـي الحديث، فهـي تبرطم ولديها الحق لأنه بين الكريب ورحلة النهر حلّت سـاعة العشـاء. والآن يجـب أن أتـركك ولكـن قبل ذلك أرسـل إليـك قبلة أخرى كريهة.

29 نوفمبر

سقَطَت ضحية نتيجة رياح الأمس، وجدتُها هذا الصباح في أثناء نزهتي المعتادة في الحديقة، وقد أشار إليّ بذلك ملاكي الحارس تقريبا، فبدلا من أن أقوم كالمعتاد بدوْرتي البسيطة حول المنزل ذهبت إلى النهاية، هناك، حيث كانت مزرعة الدواجن وحيث يوجد حاليا مخزن السماد.

وبينما أنا أسير بمحاذاة السور الصغير الذي يفصلنا عن عائلة والتر، لمحت شيئا قاتم اللون فوق الأرض. كان يمكن أن يكون مجرد نبات صنوبر، ولكنه لم يكن كذلك، فقد كان يتحرك في وقفات منتظمة. كنت قد خرجت من دون نظارتي، وعندما وصلت تماما عند هذا الشيء أدركت أن الأمر يتعلق بأنثى شحرور. ولأمسك بها خاطرت تقريبا بأن أكسر عظام فخذي. فكلما كنت أوشك على الإمساك بها، كانت تقفز قفزة بسيطة إلى الأمام.

لو كنت أكثر شبابا، لكنت أمسكت بها في أقل من ثانية، ولكنني الآن أصبحت بطيئة جدا لأتمكن من شيء كهذا. وفي النهاية جاءتني فكرة عبقرية، نزعت الوشاح عن رأسي وألقيت

بـه فوقها. وهكـذا أخذتها إلى المنزل وهـي بداخله ووضعتها في صنـدوق أحذيـة قديم، وضعـت بداخلـه خِرَقا قديمـة، وصنعت بعـض الفتحـات في الغطـاء، إحداهـا كبيرة بدرجة تسـمح لها بإخراج رأسها.

وبينما أنا أكتب، هي هنا أمامي فوق المائدة، لم أعطها طعاما لتأكل بعد لأنها عصبية جدا. وحينما أراها منفعلة هكذا، أشعر أنـا أيضا بالانفعـال، فنظرتها الخـائفة تشـعرني بالاضطراب. إذا هبطت ساحرة طيبة في هذه اللحظة، إذا ظهرت بين الثلاّجة ودولاب الأوانـي وهـي تغشـى عينـيّ بضوئها، أتعلمـين ماذا كنت سأقول لها؟!

كنت سأطلب منها خاتم سليمان، هذا المترجم السحري الذي يسـمح بالحديث مع كل حيوانات العالم. وهكذا كنت سأستطيع أن أقول لأنثى الشـحرور: «لا تقلقي يا صغيرتي، أنا كائن بشـري بالفعـل، ولكننـي مملـوءة بالنوايـا الحسـنة. سـأتولى علاجك، سـأعطيك لتأكلـي وعندمـا سـتعود إليـك عافيتك، سـأجعلك تطيرين من جديد.

لكـن لنعُد إلينا. لقد افترقنا أمس بالمطبخ، مع مثال الكريب التافه. ربما يكون ذلك. قد أغضبك. عندما يكون المرء بعد شابا يعتقـد دائمـا أن الأشـياء العظيمة تحتـاج إلى كلمـات عظيمة لوصفها.

قبل رحيلك بقليل تركتِ لي أسفل وسادتي خطابا حاولت فيه أن تشـرحي لي ضيقـك. والآن وأنتِ بعيدة يمكننـي أن أقول لك إنه بجانب هذا الشعور بالضيق لم أفهم أي شيء مطلقا من هذا

الخطاب، فقد كان كل شـيء ملتويا، وقاتما. فأنا إنسانة بسيطة، والعصـر الذي أنتمي إليـه يختلف عن العصر الذي تنتمـين أنت إليه، فأنا أقول على الأبيض أبيض والأسود أسود.

إن حـل المشـاكل يأتـي مـن خبـرة كل الأيـام، من النظـر إلى الأشـياء كما هي على حقيقتها - وليس كما يظن البعض - كما كان يجب أن تكون.

فـي اللحظة التي يبدأ المرء فيها التخلص من أثقاله، وإبعاد ما لا ينتمي إليه: ما يأتيه من الخارج، فهو بالفعل على الطريق الصحيـح. مـرات عديدة كان لـديّ الانطباع بـأن قراءاتك كانت تربكك بدلا من أن تسـاعدك، وتترك بعض السـواد حولك، كما يُترك الأخطبوط الحبر خلفه أثناء محاولته الهرب.

قبـل أن تقـرري الرحيل وضعتِ أمامي البديل: «إما أن أسـافر سنة إلى الخارج وإما أن أذهب إلى طبيب نفسي».

كان رد فعلـي قاسـيا، أتذكريـن؟ قلـتُ لـك: «يمكنـك الذهاب إلـى الخارج لمدة ثلاثة أعوام، ولكن لن تذهبي مطلقا إلى طبيب نفسي. لن أسمح لك بالذهاب حتى إذا دفعتِ أنتِ.

صدمـك جـدا رد فعلي هـذا المبالغ فيه، ففـي أعماقك، وأنت تقترحـين عليّ الطبيب النفسـي، كنت تعتقديـن أنك تقترحين عليّ شرا أقل.

حتـى إن لـم تكونـي قـد اعترضـتِ بـأي طريقـة، أظـن أنك اعتقدتِ أنني كنت مسنة جدا لأفهم هذه الأشياء، أو ربما ظننت أن معلوماتي عنها قليلة.

ولكنك مخطئة، فمنذ طفولتي وأنا أسمع الحديث عن فرويد،

فقد كان أحد أعمامي طبيبا، ونظرا إلى أنه درس في فيينا، فقد تعرف مبكرا جدا على نظرياته، وكان متأثرا بها بشدّة، وفي كل مرة كان يأتي ليتناول الطعام معنا، كان يحاول أن يقنع والديّ بفائدة هذه النظريات.

وعندئذ كانت أمي تقول: «لا تحاول مطلقا إقناعي بأنني إذا حلمت أنني آكل «الإسباجيتي»، فأنا أخشى الموت. إذا حلمت «بالإسباجيتي» فهذا لا يعني سوى أني جائعة». ولم تكن محاولات عمي تنجح مطلقا في أن يشرح لها أن ما عندها هذا ناتج عن قمع، وعن رعبها من الموت، لأن الإسباجيتي لم تكن سوى ديدان، والديدان هي الحالة التي إليها سننتهي جميعا. عند هذه اللحظة أتعرفين ماذا كانت أمي تفعل؟

بعد لحظة من الصمت كانت تنفجر في الضحك بصوت سوبرانو وتقول: «إذن، وإذا حلمت بمكرونة صغيرة؟».

ولكن، لقاءاتي مع الأطباء النفسانيين لم تنته عند حدوتة الطفولة هذه. فلقد عالج أمك أحد الأطباء النفسانيين، أو شخص يفترض أنه كذلك، لمدة عشرة أعوام، وكانت تتردد عليه حتى موتها، وهكذا، استطعت أن أتتبع - وحتى إن كان ذلك عن طريق ردود أفعالها - يوما بعد يوم التطور الكامل للعلاقة. في البداية- والحق يقال- لم تكن تقص عليّ أي شيء عن هذه الأشياء، تعرفين بالطبع، احتراما لسر المهنة.

ولكن ما صدمني على الفور - وبطريقة سلبية - هو الشعور بالتبعيّة الكاملة والفورية.

فبعد شهر فقط من تلك الزيارات أصبحت حياتها كلها تدور حول

هذا الموعد وما يحدث في تلك الساعة بينها وبين هذا الشخص.

ربما تقولين إنها غيرة مني.. ربما! هذا محتمل أيضا، ولكن هذا لم يكن السبب الأساسي، بل ما كان يثير قلقي كان الضيق أن أراها أسيرةَ تبعية جديدة: في البداية كانت السياسة، ثم بعد ذلك علاقتها بهذا الشخص.

وكانت إيلاريا قد تعرفت عليه خلال العام الأخير من إقامتها في بادوفا، وبالفعل كانت تذهب إلى بادوفا كل أسبوع. عندما أخبرتني بذلك الحدث الجديد، ارتبكت قليلا وقلت لها: «أتعتقدين أنه يجب الذهاب حتى هناك بالفعل للعثور على طبيب جيد؟»

من جهة كان قرارها باللجوء إلى طبيب للخروج من حالة الأزمة المستمرة يعطيني شعورا بالراحة. وكنت أقول لنفسي إنه إذا كانت إيلاريا قررت طلب المساعدة من أحد فهذا معناه خطوة إلى الأمام، ولكن من جهة أخرى - ونظرا إلى أنني أعرف مدى ضعفها - كنت قلقة من شأن اختيارها للشخص الذي وثقت به.

والدخول في عقل شخص آخر هو دائما شيء حساس للغاية.

عندئذ كنت أسألها: «كيف وجدته؟ هل نصحك به أحد؟» ولكنها كانت تجيبني وهي تهز كتفيها فقط، وتقول: «ماذا تريدين أن تفهمي؟»، ثم تقطع العبارة بصمت يدل على الاكتفاء.

وعلى الرغم من أنها كانت تسكن في منزل مستقل، فقد كانت لدينا العادة لأن نتزاور على الغداء مرة في الأسبوع على الأقل.

ومنذ بداية العلاج، كانت أحاديثنا في تلك المناسبات تتميز بنوع من السطحية الكبيرة والمقصودة. كنا نتكلم عما

كان يحـدث في المدينة، عن الجـو، إذا ما كان الطقس معتدلا، وإذا مـا كان قد حدث شـيء في المدينـة، وكنا نمكث من دون أن نتحدث تقريبا.

ولكن، بعد ثالث أو رابع رحلة إلى بادوفا، شعرت بتغيير. فبدلا من أن نتحدث عن لا شيء، كانت هي تسأل، كانت تريد أن تعرف كل شيء عن الماضي، وعن والدها وعني وعن علاقتنا.

وفي الواقع، لم تكن أسئلتها بدافع الفضول، بل كانت نبرتها نبـرة محقـق، كانـت تكرر السـؤال أكثر مـن مرة وهـي تصر على تفاصيل صغيرة. كان تثير الشـك في أحداث عاشـتها بنفسـها. وكانت تتذكرها جيدا جدا، وفي تلك اللحظات لم يكن يبدو لي أنني أتحدث مع ابنتي، بل مع مفتش شرطة يريد مني أن أعترف بأي طريقة بجريمة ما.

وذات يوم، بعد أن فقدت صبري قلت لها: «كوني واضحة، قولي لي إلامَ تريدين الوصول؟».

نظرت إليّ بطريقة شـبه سـاخرة، وأخذت شوكة ألقت بها في الكوب، ولم نكد نسـمع رنينها في الكـوب حتى قالت: « في مكان مـا، فـي أول المحطة، أريد أن أعرف متى ولمـاذا قمتِ أنت وزوجك بقص جناحي؟».

كان هذا هو الغداء الأخير الذي سمحت فيه بأن أضع نفسي في نيران تلك الأسـئلة المتلاحقة، وبالفعل قلت لها في الأسـبوع التالـي في محادثتنـا التليفونية أن تأتي ولكن بشـرط أن يكون بيننا حوار بدلا من تلك المحاكمة.

هـل كنت خائفـة؟! بالتأكيد، كنت خائفة. كانت هناك أشـياء

كثيرة أرغب في أن أتحدث فيها مع إيلاريا ولكن لم يبدُ لي صوابا أو صحيا أن أكشف عن أشياء حساسة بهذه الطريقة تحت ضغط تحقيق. لو كنت خضعت للعبتها لكنتَ بدلا من أحظى بعلاقة جديدة بين شخصين ناضجين، سأصبح فقط وإلى الأبد مذنبة، وهي إلى الأبد ضحية، من دون أي طريقة للخلاص.

وتحدثت معها عن علاجها بعد عدة أشهر. وكانت في ذلك الوقت تقوم بعمل خلوات تستمر طيلة نهاية الأسبوع، كانت قد فقدت الكثير من وزنها، وفي أحاديثها كانت توجد نبرة هلوسة لم أسمعها من قبل مطلقا. قصصت عليها حكايات عن أبي جدها، وعن صلاته الأولى بعلم النفس ثم، وكأنه لم يحدث أي شيء سألتها: «إلى أي مدرسة ينتمي طبيبك النفسي».

أجابتني هي: «ولا واحدة، أو من الأفضل أن نقول من مدرسة أنشأها هو وحده».

منذ تلك اللحظة، أصبح ما كان مجرد جزع بسيط قلقا حقيقيا وعميقا. نجحت في اكتشاف اسم الطبيب، وبتحقيق بسيط اكتشفت أيضا أنه لم يكن طبيبا على الإطلاق. وكانت الآمال التي وضعتها منذ البداية على تأثير العلاج قد تلاشت في غمضة عين. بالطبع لم يكن عدم وجود الشهادة الجامعية في حد ذاته هو الذي أصابني بالقلق، ولكن عدم وجود الشهادة بالإضافة إلى ظروف إيلاريا التي كانت تزداد سوءا. وكنت أفكر إذا كان هذا العلاج صالحا، فبعد حالة من البؤس كان يجب أن تكون هناك حالة من السعادة الكبيرة، وببطء وبين شكوك وسقطات، كان لا بد لها أن تدرك ما هي فيه.

ولكن، بدأت إيلاريا رويدا رويدا تتوقف عن الاهتمام بما حولها، فقد أنهت دراستها بالفعل منذ عدة سنوات ولم تكن تفعل شيئا، وابتعدت عن أصدقائها القلائل، وكان شاغلها الوحيد هو أن تفحص الحركات الداخلية باستحواذ عالم متخصص في الحشرات. كان العالم كله يدور حول ما حلمت به في الليل، حول جملة قلتها أنا أو والدها لها من عشرين عاما. وفي مواجهة هذا التدهور الذي يحدث حياتها كنت أشعر بعجز تام.

بعد ثلاثة مواسم صيف، فُتحت بارقة من الأمل لعدة أسابيع، فبعد عيد القيامة بقليل اقترحت عليها أن نقوم برحلة معا. وكانت مفاجأتي العظمى أن إيلاريا - بدلا من أن ترفض الفكرة على الفور- رفعت عينيها وقالت: «وأين يمكن أن نذهب؟». فأجبتها: لا أعلم. كما تشائين، إلى أي مكان نريد أن نذهب إليه».

وفي الظهيرة نفسها انتظرنا بفارغ الصبر أن تفتح مكاتب السياحة أبوابها، ولمدة أسابيع أخذنا نجوب كل مكان بحثا عن شيء يعجبنا. وفي النهاية اخترنا اليونان - كريت وسانتوريني - في نهاية شهر مايو. ووحّدتنا الأشياء العملية التي يجب إنجازها قبل الرحيل بروح مشاركة لم تكن موجودة من قبل. كانت هي قلقة جدا على الحقائب، خائفة من نسيان شيء له أهمية أساسية، ولتهدئتها اشتريت كراسة، وقلت لها: «اكتبي هنا كل الأشياء التي تلزمك وعندما تضعينها بالفعل في الحقيبة ضعي علامة بجوارها».

وفي المساء، وعند ذهابي لأنام أخذت ألوم نفسي لأنني لم أفكر من قبل في أن رحلة كهذه لنا معا وسيلة رائعة لمحاولة

استعادة العلاقة. وفي يوم الجمعة السابق للرحيل اتصلت بي إيلاريا وقالت لي بصوت معدني، وأعتقد أنها كانت تتحدث من كابينة تليفون في الطريق: «يجب أن أذهب إلى بادوفا، سأعود مساء الثلاثاء»، سألتها: «هل يجب الذهاب فعلا؟». ولكنها كانت قد قطعت الاتصال.

ولم أعرف أي شيء عنها حتى يوم الخميس التالي، وفي الساعة الثانية دق جرس التليفون، وكانت نبرتها غير مستقرة بين القسوة والندم، قالت: «يؤسفني، ولكنني لن أذهب إلى اليونان». وانتظرت رد فعلي، وأنا أيضا، وبعد بضع ثوانٍ أجبتها: «وأنا أيضا يؤسفني هذا كثيرا، ولكنني على كل حال سأذهب». عندئذ أدركت إحباطي وحاولت أن تبرر لي ما حدث وهمست قائلة: «إذا رحلت فهذا معناه أنني أهرب من نفسي».

وكما يمكنك أن تتخيلي، كانت رحلة تعسة جدا، وكنت أجبر نفسي على متابعة المرشدين، وأن أهتم بالمناظر الطبيعية، وبالآثار، وفي الحقيقة لم أكن أفكر إلا في والدتك، وإلى أين تقود حياتها.

كنت أقول لنفسي إن إيلاريا تشبه فلاحا، بعد أن زرع بستانه ورأى أول نبتة له، أصابه الخوف أن يحدث شيء فيغرقها. عندئذ - لحمايتها من التقلبات الجوية - ابتاع نسيجا جميلا من البلاستيك المقاوم للمياه وللرياح ووضعه فوقها، وذلك ليبعد عنها حشرات النبات والهزال، وأخذ يرشها بجرعات زائدة من مبيدات الحشرات. وأصبح عمله مستمرا، فهو لا يكف عن التفكير في بستانه لحظة واحدة في الصباح أو الليل، وفي

الطريقــة التــي يجب عليه بها حمايته. وفــي صباح أحد الأيام، وهو يرفع النســيج، فوجئ بمفاجأة ســيئة، فقد وجد النبتة كلها فاسدة، وميتة.

لو كان قد تركها حرة لتنمو، كان البعض منها ســيموت أيضا، ولكن كان يمكن للبعض أن ينمو. ويجوار تلك التي زرعها، وذرتها الرياح وقضت عليها الحشرات كانت ستنمو أخريات، كان البعض منهــا ســيصبح أعشــابا ســيئة وكان ســينزعها، ولكن ربمــا كانت ســتصبح أخريات أزهارا وبألوانها كانت ستنشر البهجة في رتابة البســتان. أتفهمــين؟ هكذا تســير الأمور، يجــب أن تتميز الحياة بالســخاء، فمحاولــة زرع صفاتنــا الصغيرة الخاصــة من دون أن نرى شيئا مما يحيط بها يعني التنفس ولكن ونحن أموات.

وبعــد أن فرضــت قســوة مفرطــة علــى عقلها، قمعــت إيلاريا بداخلهــا صــوت قلبها، ولمناقشــة هــذا معها كنت أخشــى أن أذكر تلــك الكلمة. فــي إحدى المرات أثناء فتــرة مراهقتها قلت لها إن القلــب هــو مركــز الــروح. وفي صباح اليــوم التالي وعلــى مائدة المطبــخ وجدت القاموس مفتوحا على كلمــة «روح»، وبقلم أحمر كانــت قد وضعت خطا تحت التعريف: ســائل بلا لون يعمل على حفظ الفاكهة.

فالقلب كان يجعلها تفكر على الفور في شيء ساذج بلا قيمة، فــي أثناء شــبابي كان يمكنني ذكره مــن دون خجل، أما الآن فهي كلمــة غيــر متداولــة. المــرات النادرة التــي يُذكر فيهــا يكون ذلك للإشــارة إلــى وظيفتــه الســيئة، ليــس القلب في مجملــه، ولكن مجرد انســداد الشــريان التاجي، أو معاناة قلبية خفــيفة، ولكن

لا يحدث مطلقا أن يذكر على أنه مركز للروح الإنسانية.

مرات عديدة سألت نفسي عن سبب هذا الإقصاء. كان أوجوستو كثيرا ما يقول مستشهدا بالكتاب المقدس: «من يحتكم إلى قلبه جاهل». ولكن لماذا هو جاهل؟

ربما لأن القلب يشبه غرفة الاشتعال؟ لأن هناك ظلاما بالداخل، ظلاما ونيرانا؟ والعقل حديث، بينما القلب عتيق.

عندئذ يفكر المرء في أن من يهتم بالقلب قريب من عالم الحيوان، إلى منطقة اللاتحكم، بينما من يهتم بالعقل هو قريب من الأفكار عالية المستوى. وإذا لم تكن الأشياء هكذا؟ إذا كان العكس تماما هو الصحيح؟ إذا كان هذا الإفراط في العقلانية هو الذي يوهن الحياة؟!

أثناء رحلة العودة من اليونان اعتدت على قضاء جزء من الصباح بالقرب من كابينة القيادة. كنت أحب النظر إلى الداخل، أن أنظر إلى الرادار وكل تلك الأجهزة المعقدة التي تخبرنا عن وجهتنا. هناك، ذات يوم وأنا أراقب أجهزة الهوائي المختلفة التي تتذبذب في الهواء، فكرت في أن الإنسان يشبه إلى حد كبير مذياعا قادرا على أن يطابق بين الإرسال والاستقبال فقط على شريط التردد. إن الشيء نفسه يحدث مع أجهزة الراديو الصغيرة التي تجدينها هدية في مساحيق الصابون، وعلى الرغم من أن جميع المحطات مرسومة على الواجهة فإنك عندما تحركين مؤشر الذبذبات تستطيعين فقط الحصول على محطة أو اثنتين، والمحطات الباقية تستمر في الرنين في الهواء.

لديّ انطباع أن الاستخدام المفرط للعقل يسبب - بطريقة

أو بأخرى- التأثير نفسه، فمن بين كل الحقائق التي تحيط بنا لا ينجح إلا في التقاط جزء ضئيل منها. وكثيرا ما تسود الفوضى هذا الجزء لأنه مملوء بالكلمات، والكلمات، في أغلب الأحيان بدلا من أن تقودنا إلى مكان ما أكثر اتساعا تجعلنا فقط ندور حول أنفسنا.

يحتاج التفهم إلى الصمت. عندما كنت شابة لم أكن أعرف ذلك، ولكنني أعرفه الآن، حيث أدور في المنزل صامتة ووحيدة كما تفعل السمكة في حوضها الزجاجي. إن الأمر مثل تنظيف أرضية قذرة بمكنسة أو بقماشة مبللة، إذا استخدمت المكنسة سيتطاير الغبار في الهواء وسيسقط على الأدوات المجاورة، ولكن إذا استخدمت القماشة المبللة ستبقى الأرضية لامعة ومصقولة. إن الصمت مثل القماشة المبللة، يقضي إلى الأبد على قتامة الأتربة.

إن العقل سجين الكلمات، وإذا كان هناك إيقاع ينتمي إليه، فهو ذلك الإيقاع الفوضوي للأفكار، ولكن القلب يتنفس، فبين جميع أعضاء الجسم هو الوحيد الذي ينبض، وهذا النبض هو الذي يسمح له بالدخول في تناغم مع نبضات أعظم. أحيانا يحدث لي - عن شرود ليس أكثر - أن أترك التليفزيون مفتوحا طيلة الظهيرة، حتى إن لم أكن أشاهده، فضوضاؤه تتبعني من غرفة إلى أخرى، وفي المساء عندما أذهب إلى فراشي أكون عصبية أكثر من المعتاد ولا أنجح في النوم، فإن الضوضاء المستمرة، والفوضى كالمخدرات، عندما يعتاد المرء عليها لا يستطيع الاستغناء عنها.

لا أريد الذهاب إلى أبعد من ذلك، ليس الآن على الأقل، ففي الصفحات التي كتبتها اليوم كأنني قمت بتجهيز تورتة وخلطت عدة وصفات : بعض اللوز ثم الزبد، البيض وبعض الروم، البسكويت والمرزبانية، شيكولاتة ومعها مربى، باختصار إحدى تلك الأكلات البشعة التي قمتِ في أحد الأيام بإجباري على تذوقها والتي يُطلق عليها المطبخ الجديد.

هل هذا تشويش؟ محتمل.

أعتقد أنه إذا قام فيلسوف بقراءتها فلن يستطيع منع نفسه من أن يضع علامات بالقلم الأحمر على كل شيء مثل المدرسات المسنات. وكان سيكتب: «غير متناسق، خارج الموضوع، لا سند له جَدليا».

تخيلي لو وقع بعد ذلك في يد طبيب نفساني! يمكنه أن يكتب تقريرا كاملا عن علاقتي الفاشلة مع ابنتي، عن كل ما استقصيته. حتى إن كنت استقصيت شيئا ما، ما أهمية ذلك الآن؟

كانت لديّ ابنة وفقدتها، ماتت في حادث بسيارتها، في اليوم نفسه الذي كشفت لها فيه أن أباها - الذي تسبب لها في كثير من الشقاء - لم يكن أباها الحقيقي. إن ذلك اليوم حاضر في ذهني مثل بكرة فيلم، بيد أنه - بدلا من أن يتحرك في آلة العرض - ثابت على أحد الحوائط. أتذكر جيدا جدا ترتيب المشاهد، وأعرف تفاصيل كل مشهد، لا يغيب عني أي شيء، كل شيء مازال بداخلي، يضغط على أفكاري وأنا مستيقظة، وعندما أنام. وسيستمر في الضغط أيضا بعد موتي.

استيقظت أنثى الشحرور، أخذت تخرج رأسها من الفتحة في فترات منتظمة وتصدر صوتا واضحا، ويبدو كأنها تقول: «أنا جائعة، ماذا تنتظرين لتطعميني؟» نهضت، وفتحت الثلاجة، ونظرت إذا كان هناك شيء يناسبها. ونظرا إلى أنني لم أجد شيئا أخذت التليفون وذلك لأسأل السيد والتر إذا كانت لديه ديدان. وبينما أنا أطلب الرقم قلت لها: «هنيئا لك أيتها الصغيرة، إنكِ وُلدتِ من بيضة وبعد أن طرتِ لأول مرة نسيتِ سمات والديك».

30 نوفمبر

هـذا الصباح بعد التاسـعة بقليل حضر والتـر وزوجته ومعه حقيبـة ديدان نجح في الحصـول عليها من أحد أقاربه من هواة صيـد السـمك. كانـت ديـدان دقيق. وبمسـاعدته أخرجـت أنثى الشـحرور الصغيـرة مـن الصنـدوق، وكان قلبها ينبـض بجنون أسـفل ريش صدرهـا الناعم. أخذتُ الديـدان من الطبق بملقط صغير معدني وقدمتها إليها. وعلى الرغم من أنني قدمتها إليها بطريقة تفتح الشهية فإنها لم تأخذ شيئا. عندئذ حثّني السيد والتـر قائـلا: «افتحي لها منقارها بعود خشـبي، واضغطي عليها بإصبعـك. وكالعادة لم تكن لديّ الشـجاعة الكافية لأقوم بذلك. وفجـأة تذكرت - نظرا إلى الطيـور الكثيرة التي أطعمناها معا - أنـه يجب تهييـج المنقار من أحـد الجانبين، وفعـلا قمت بذلك. وبالفعـل، كأن بالخلـف توجـد «سوسـتة، فتحت أنثى الشـحرور منقارها على مصراعيه. اكتفت بثلاث ديدان.

أخذت السيدة رازمان تعد القهوة - لم أعد أنا قادرة على ذلك منذ أن عجزت يدي - وأخذنا نتحدث لبعض الوقت، كانت حياتي

ستصير أكثر صعوبة من دون رفقتهم واستعدادهم للمساعدة. خلال بضعة أيام سيذهبان إلى أحد المشاتل لشراء بذور وسماد لفصل الربيع القادم ودعواني للذهاب معهما. لم أجبهما على ذلك إجابة قاطعة، واتفقنا على أن يكون بيننا اتصال تليفوني غدا في التاسعة.

كان ذلك اليوم هو الثامن من شهر مايو، كنت قد قضيت النهار في الاعتناء بالحديقة، كانت أشجار الكرز قد امتلأت بالبراعم. وفي وقت الغداء- ومن دون أن تخبرني مسبقا- وجدت والدتك أمامي.

حضرت في هدوء ووقفَت خلفي وصرخَت «مفاجأة!». سقطت المذراة من يدي فزعا. كان تعبير وجهها يناقض الحماس المزيف الفرح لهتافها. كانت شاحبة، وشفتاها متشنجتان.

وكانت تمرر يدها باستمرار بين شعرها في أثناء حديثها، وتبعده عن وجهها، تشده، وتضع خصلة في فمها.

كانت تلك هي حالتها المعتادة في الفترة الأخيرة، وعندما رأيتها هكذا لم أشعر بالقلق، على الأقل ليس أكثر من المرات السابقة. سألتها عنك، قالت لي إنها تركتك لتلعبي لدى إحدى صديقاتها. وبينما نتجه إلى المنزل، أخرجت من جيبها حزمة ورد «لا تنسني» مفروكة.

وقالت: إنه عيد الأم، ووقفت بلا حراك وهي تنظر إليّ والورود في يدها، من دون أن تقرر التقدم خطوة. عندئذ قمت أنا بالخطوة، وذهبت بالقرب منها واحتضنتها بحنان وأنا أقول لها شكرا. وعندما شعرت بجسدها بالقرب مني شعرت باضطراب

شـديد، فقد كانت هناك قسـوة بشـعة فيها، وعندما أخذتها في حضني ازدادت قسـوة. وكان لديّ الشـعور بأن جسـدها بالداخل أصبح مجوفا تماما، وكان ينبعث منه هواء بارد كالذي يخرج من الكهـوف. وفي هـذه اللحظة أتذكر جيدا أنني أخذت أفكر فيك. سألت نفسي ماذا سيكون مصير الطفلة، مع أم أصبحت في هذه الحالـة؟ فمـع مرور الوقـت أصبحت الحالة تتدهـور بدلا من أن تتحسن. كنت قلقة عليك، وعلى تربيتك.

كانـت والدتك غيورة، وكانت تحضرك عندي أقل وقت ممكن. كانـت تريد أن تجنبك تأثـيري السـلبي. فـإذا كنـتُ قد دمـرتها، فلا يجب أن أنجح في تدميرك أنت أيضا.

كانت سـاعة الغداء، وبعـد أن تعانقنا، ذهبت إلى المطبخ لأعد الطعام. وكان الجو معتدلا. قمنا بإعداد المائدة في الخارج، أسفل شـجرة الوسـتارية. وضعت المفارش المربعة الخضـراء والبيضاء، وفي وسط المائدة وضعت الفازة وبها ورود «لا تنسني».

أتريـن؟ أتذكـر كل شـيء بدقـة لا تُصـدق مقارنـة بذاكرتـي المهـزوزة. هـل كنت أتوقع أنها سـتكون المرة الأخيرة التي سـأراها فيهـا؟ أم أننـي بعد حدوث المأسـاة حاولـت أن أطيل في مخيلتي الوقت الذي قضيناه معا؟ من يدري. من يمكنه أن يجزم بشيء!

ونظرا إلى أنه لم يكن لديّ طعام معد، أعددت صلصة. وبينما كانـت على وشـك الانتهاء، سـألت إيلاريا إذا كانـت تريد مكرونة لولبيـة الشـكل أم «مقصوصة»، ومن الخـارج أجابتني: «لا يوجد فرق».

عندئذ وضعت المكرونة اللولبية وعندما جلسنا سألتها بعض

الأسـئلة عنـك، وأجـابتني عنـها وهـي تتـهرب. وفــوق رؤوســـنا لم تتوقف حركة الحشرات، كانت تدخل وتخرج من الأزهار، وكان طنينهـا يـكاد يغطي علـى كل كلماتنـا. وفي إحـدى اللحظات، انقض شيء داكن اللون على صحن والدتك. أخذت تصرخ قائلة: «إنــه دبور، اقتليــه، اقتليه!» وهي تقفز من مقعدها، وتسـقط كل شــيء. عندئـذ اقتربت أنـا لأتفحص الأمر فوجـدت نحلة وقلت لها: «إنه ليس دبورا، ليسـت سـوى نحلة، وهي غير مضرة». وبعد أن أبعدتها عن المفرش، وضعت لها من جديد المكرونة في الطبق. وبحركـة مازالـت مرتبكة عادت مـرة أخرى إلى مكانها. أمسـكت بالشـوكة وأخذت تلعب قليلا وهي تمررهـا من يد إلى أخرى، ثم وضعت مرفقيها على المائدة وقالت: «إنني بحاجة إلى نقود».

وفوق المائدة حيث سـقطت المكرونة تكونت بقعة كبيرة حمراء اللون.

كانت مشكلة النقود قد بدأت منذ عدة أشهر، كانت إيلاريا قد اعترفت لي قبل عيد الميلاد في العام الماضي بأنها قد وقعت على أوراق نقديـة لمصلحة طبيبها النفسـي. وقد تهربت أمام سـؤالي ومطالبتي بتوضيح أكثر.

وقالت: ضمانات، مجرد إجراءات رسمية بسيطة. كان هذا هو سـلوكها الإرهابي، عندما كانت تريد الإفصاح عن شـيء لم تكن تقول سـوى نصفه. وبهـذه الطريقة كانت تفـرغ قلقها بداخلي، وبعـد أن تفعـل ذلـك لم تكـن تعطينـي المعلومـات الكافية حتى أتمكن من مسـاعدتها. وكان هناك نوع من السـادية في كل هذا. وبجانـب السـادية، كانـت هناك ضـرورة غاضبة لأن تكـون دائما

محـور بعض القلق. ولكن فـي أغلب الأحيان كانت قصصها هذه مجرد مزحة.

فمثـلا قالـت لي: «إنني مصابة بسـرطان فـي المبايض»، وبعد تحريـات مضنية وقصيرة، اكتشـف أنها ذهبت فقط لتقوم بعمل كشف دوري كسائر النسـاء، أتفهمـين؟! كانت تفعـل مثل قصة الصبي الذي كان يستغيث «الذئب، الذئب».

وفي السـنوات الأخيرة كانت قد أخبرتني بمآسٍ عديدة حتى أنني في النهاية توقفت عن تصديقها، أو كنت أصدقها بصعوبة. وهكـذا عندمـا قالت لي إنها وقعت على بعـض الأوراق لم أعرها اهتماما كبيرا، ولم أصر على معرفة أخبار أخرى، فقد كنت قبل كُل شـيء منهكـة القوى مـن لعبـة التعذيب هذه. حتـى لو كنت أصـررت، حتى لو كنـت عرفت بهذا من قبل، كان سـيصير الأمـر بـلا فائـدة، إذ إنها وقعت بالفعل منذ فتـرة على تلك الأوراق من دون أن تخبرني بأي شيء.

ولكـن السـقوط الحقيقـي والفعلـي حـدث فـي نهاية شـهر فبراير. وقتها فقط عرفت أن إيلاريا بتلك الأوراق قامت بضمان أعمال طبيبها بمبلـغ قدره ثلاثمائة مليون. وفي هذين الشهرين أفلسـت الشـركة التي وقعت لها الضمانات، كان هنـاك عجز قدره تقريبا ملياران وبدأت البنوك تطالب باستعادة النقود الموظفة.

عندئـذ أتـت والدتـك إليّ وهي تبكي وتسـألني مـاذا يجب أن تفعـل. وفـي الواقـع كان الضمـان عبارة عن المنـزل الذي تعيش فيـه معـك، وهذا مـا كانـت البنوك تريـده منها. يمكنـك تخيل مـدى غضبـي. فعلـىَ مدى ثلاثين عامـا لم تسـتطع والدتك أن

تعول نفسـها، بل قامت أيضا بالمراهنة على الشيء الوحيد الذي كانـت تمتلكه، المسـكن الذي كتبته لها في لحظـة ميلادك. كنت أستشيط غضبا ولكنني لم أجعلها تلحظ ذلك، وحتى لا أتسبب فـي أن أزيد من اضطرابها، تظاهرت بالهـدوء وقلت لها: «لنرَ ما يمكن عمله».

ونظـرا إلى أنها كانت قـد أصيبت بحالة بـلادة كاملة، بحثت لهـا عن محـامٍ جيد، وقمت بدور المحقق، فجمعـت كل المعلومات اللازمة للفوز بالقضية القائمة مع البنوك.

وهكذا نمى إلى علمي أن طبيبها كان قد بدأ بالفعل منذ عدّة أعوام في إعطائها مهدئات، وحين كانت تشـعر بإحباط في أثناء الجلسـات، كان يقدم لها الويسـكي. ولم يكن يفعل شيئا سوى أن يكرر عليها أنها التلميذة المفضلة، والأكثر موهبة، وأنها سـرعان مـا سـتقف علـى قدميهـا وسـتفتح هي الأخـرى عيـادة يمكنها بدورها أن تعالج الناس فيها.

إن مجرد تكرار تلك العبارات يصيبني بالقشعريرة.

أتدركين معنى ذلك؟ إيلاريا بضعفها، بارتباكها، بالغياب التام لمركز حياتها، يمكنها بين يوم وليلة أن تعالج الآخرين.

ولولا وقوع تلك الكارثة لكان ذلك ما سـيحدث بالفعل، فمن دون أن تطلعني على أي شـيء كانت ستقوم بممارسة الفن نفسه الذي كان يمارسه قديسها العظيم.

وبالطبـع لم تجـرؤ مُطلقا على أن تتحـدث معي بوضوح عن مشـروعها، وعندما كنت أسـألها لماذا لا تستخدم شهادة تخرجها بطريقة أو بأخرى، كانت تجيبني بابتسامة خبيثة: «سـترين أنني

سأستخدمها».

هناك أشـياء تسبب الآلام العظيمة بمجرد التفكير فيها. ثم إن مجرد التفوه بها يسبب ألما أكبر.

في تلك الأشـهر المسـتحيلة كنت قد فهمت شـيئا عنها: شيئا لم يخطر ببالي مطلقا، ولا أعلم إذا كنت أصنع خيرا بأن أخبرك بـه. علـى كلٍ، لقد قررت ألا أخفي عنك شـيئا، سـأفرغ كل ما في جعبتي.

أتريـن، فجـأة أدركت التالي، أن والدتك لـم تكن ذكية مطلقا، ولقـد تعبـت كثيـرا حتـى أفهـم ذلـك وأقبلـه، وذلك لأننـا عادة مـا نخدع أنفسـنا فيمـا يتعلق بأبنائنـا، وأيضا بسـبب أنها بكل معرفتهـا الظاهريـة، وبـكل قدرتهـا علـى الجدل اسـتطاعت أن تخلـط الأوراق بطريقـة جيـدة جـدا. إذا كانـت لديّ الشـجاعة لإدراك ذلك في حينه، كان يمكنني أن أحميها أكثر من ذلك، كان يمكنني أن أحبها بطريقة أكثر شـدة. فربما كنت بحمايتي إياها سأنجح في إنقاذها.

كان هـذا الشـيء الأكثر أهميـة وأدركته أنا بعد فـوات الأوان. وبالنظر إلى الوضع برمته، عند هذه اللحظة كان الحل الوحيد هو الإعلان لها بأنها غير قادرة على الإدراك وعلى اتخاذ القرارات، وإقامة دعوى حجر عليها. وفي اللحظة التي قلت لها إننا قررنا - أنا والمحامي - أن نسلك هذا الطريق، انفجرت والدتك في أزمة هستيرية وأخذت تصرخ: «إنك تفعلين ذلك عن عمد، إن كل هذه مجرد خطة لتنتزعي عني الطفلة».

ولكنني كنت واثقة بأنها بداخلها كانت تفكر أساسـا في شيء

آخـر، ألا وهـو أنه لـو تم الحكم عليهـا بعدم القـدرة على الفهم واتخاذ القرارات لاحترق مستقبلها إلى الأبد.

كانت تسـير معصوبة العينين على حافة هاوية، وكانت لاتزال تعتقد أنها تتنزه في مرعى. وبعد تلك الأزمة أمرتني بأن أصرف المحامي وأن أنسـى الأمر برمته. وقامت هي بعد ذلك باستشـارة محـامٍ آخـر، وحتى ذلـك اليوم الـذي أحضرت فيـه الأزهار، لم تخبرني بأي شيء.

أتدركـين إذن حالتـي النفسـية عندمـا وضعـت مرفقيها فوق المائـدة وطلبـت مني النقـود؟! بالتأكيـد أعلم أننـي أتحدث عن والدتك وربما لا تشعرين في كلماتي إلا بقسوة فارغة، وتعتقدين أنها كانت على حق في كراهيتها لي.

ولكـن تذكري ما قلتـه لك في البداية، فقد كانت والدتك هي ابنتي، وأنني قد فقدت أكثر بكثير مما فقدتِ أنتِ.

وأنتِ بريئة من فقدانها، بينما أنا لست كذلك.

وإذا كان يبدو لك أحيانا أنني كنت أتحدث عنها ببعد، فحاولي أن تتخيلي مدى آلامي، وكم هذه الآلام. وهكذا ستدركين أن هذا البعـد مجرد بعد ظاهري، إنه ذلك الفراغ الهوائي الذي بفضله يمكنني الاستمرار في الحديث.

عندمـا طلبَـت مني أن أسـدد ديونهـا، قلت لهـا لأول مرة في حياتي: لا. لا حاسمة.

أجبتها: «لسـت بنكا سويسـريا، ليست لديّ تلك المبالغ. حتى إن كانـت لديّ فلن أعطيهـا لك، إنك كبيرة بدرجة كافية لتكوني مسـؤولة عـن تصرفاتـك. كان لديّ منزل واحد وكتبته باسـمك،

وإذا كنت قد فقدته فهذا شيء لا يخصني».

عند هذه اللحظة بدأت في البكاء، كانت تبدأ عبارة، ثم تتركها عند منتصفها، ثم تبدأ عبارة أخرى، ومن المحتوى ومن الطريقة التي كانت تتلاحق فيها الكلمات لم أنجح في استنتاج أي معنى أو منطق. وبعد حوالي عشر دقائق من الشكوى، وصلت إلى مربط الفرس، إنه أبوها وذنوبه المزعومة، وقبل كل شيء الانتباه القليل الذي كان يعيرها إياه.

وأخذت تصرخ في وجهي وعيناها تومضان بضوء رهيب: «يجب أن أحصل على تعويض، أتفهمين ذلك أم لا؟».

عندئذ، ولا أعرف كيف، انفجرت، والسر الذي كنت قد أقسمت أن أصحبه معي إلى قبري صعد إلى شفتي. وبمجرد أن خرج كنت قد شعرت بالفعل بالندم، كنت أريد أن أستدعيه من جديد بداخلي، كنت على استعداد أن أفعل أي شيء لأبتلع تلك الكلمات مرة أخرى ولكن كان الوقت متأخرا جدا. فكانت عبارة: «إن أباكِ ليس هو أبوك الحقيقي»، قد وصلت بالفعل إلى أذنيها. ازداد شحوب وجهها، ونهضت على قدميها ببطء، وهي تحدق فيّ: «ماذا قلتِ؟»، وكان صوتها يُسمع بالكاد.

أما أنا فقد عدت إلى هدوئي من جديد. أجبتها: «لقد سمعت جيدا، قلت إن أباك لم يكن زوجي».

كيف تصرفت إيلاريا؟ رحلت ببساطة. التفتت وبحركات مثل حركات الرجل الآلي أكثر من كونها حركات آدمية اتجهت نحو باب الحديقة. صرختُ فيها بصوت رفيع كريه: «انتظري! فلنتحدث».

لماذا لم أنهض، لماذا لم أركض خلفها، لماذا لم أفعل أي شيء لأوقفها، لماذا تحجرت أنا أيضا من كلماتي نفسها؟ حاولي أن تفهمي، ما حاولت أن أصونه لسنوات عديدة، وبحرص شديدة، فلت مني فجأة. في أقل من لحظة، وجد مثل عصفور الكناريا فجأة أمامه باب القفص مفتوحا، فخرج بعيدا ووصل إلى الشخص الوحيد الذي لم أكن أريده أن يصل إليه.

في تلك الظهيرة نفسها، في الساعة السادسة، وبينما أنا مازلت أسقي شجرة «الجنبة» بارتباك، حضرت دورية شرطة طريق لتخبرني بالحادثة.

الآن الوقت متأخر، كان عليّ أن أتوقف. قمت بإطعام بوك وأنثى الشحرور، وأنا أيضا أكلت وشاهدت التليفزيون لفترة.

إن درعي التي تمزقت لم تعد تسمح لي بأن أتحمل الانفعالات القوية، فلكي أستمر يجب أن أروّح عن نفسي، يجب أن أستعيد أنفاسي.

كما تعرفين، لم تَمُت أمك على الفور، قضت عشرة أيام معلقة بين الحياة والموت، في تلك الأيام كنت دائما بجوارها، كنتُ أتمنى أن تفتح عينيها ولو للحظة، أن تكون لديّ فرصة أخيرة لأطلب منها المغفرة. كنا وحدنا في غرفة صغيرة مملوءة بالأجهزة، وشاشة صغيرة تُعلن أن قلبَها مازال ينبض، وشاشة أخرى تعلن أن مخها متوقف تقريبا. كان الطبيب الذي يعتني بها يقول لي إن المرضى يستفيدون أحيانا عندما يستمعون إلى أصوات كانوا يحبونها.

عندئذ أحضرت أغنيتها المفضلة عندما كانت طفلة، وبجهاز تسجيل صغير كنت أجعلها تستمع إليها لساعات. وفي الواقع يبدو أن شيئا ما وصل إليها لأنه بعد الليالي الأولى، تغيرت

تعبيرات وجهها. كان يبدو كأنها تبتسم راضية، من يدري، ربما في جزء صغير من عقلها مازال نشطا كانت لاتزال تحفظ في ذاكرتها بحقبة سعيدة، وربما لجأت في تلك اللحظة إلى هذا الجزء. هذا التغيير الطفيف ملأني بالسعادة، ففي هذه الحالات يتعلق المرء بلا شيء، فلم أكن أتعب من التربيت على شعرها ومن أن أكرر عليها: «يجب أن تنجحي في ذلك يا حبيبتي، إن لدينا حياة مديدة لنعيشها معا، لنبدأ كل شيء من جديد، بطريقة مختلفة»

وبينما أنا أتحدث إليها، كانت تظهر أمامي صورة، كان عمرها حوالي أربع أو خمس سنوات، كنت أراها تتجول في الحديقة وهي تمسك بإحدى يديها عروسها المفضلة، وكانت تتحدث معها باستمرار. كنت أنا في المطبخ، ولم أكن أسمع صوتها، ولكن من حين إلى آخر كانت تصل إليّ ضحكاتها من خلف النباتات، ضحكات عالية، فرحة. عندئذ كنت أقول لنفسي: إذا كانت في وقت ما قد شعرت بالسعادة، فمن المؤكد أنها يمكن أن تستعيد ذلك الشعور. وحتى تولد من جديد يجب أن نبدأ من طفولتها.

أول ما قاله لي الأطباء بعد الحادث إنه حتى لو تمت لها النجاة، لن تعود وظائف جسدها كما كانت، حيث يمكن أن تظل قعيدة أو مدركة جزئيا لما حولها.

أتعلمين؟ بأنانيتي كأم قلقة فقط على أن تستمر في الحياة، بأي طريقة، لم يكن لهذا أي أهمية.

بل كان دفعي لها على مقعد متحرك، وغسلها، وإطعامها، وأن أهتم بها كأنها هدفي الوحيد في الحياة، كان سيكون أفضل طريقة للتكفير تماما عن خطئي.

إذا كان حبي حقيقيا، إذا كان فعلا حبا كبيرا لكنت صليت لأجل موتها. ولكن في النهاية كان هناك من يحبها أكثر مني.

ففي آخر الظهيرة في اليوم التاسع، اختفت من وجهها تلك الابتسامة الغامضة وماتت. أدركتُ ذلك على الفور، فقد كنتُ هناك بجوارها. لم أبلغ ممرضة الدورية لأنني كنت أريد أن أمكث معها قليلا. أخذت أربت على وجهها، وضممت يدها بين يديّ كما كنت أفعل وهي طفلة، وأخذت أردد: «حبيبتي، حبيبتي» ثم - مِن دون أن أترك يدها - ركعت عند طرف الفراش وأخذت أصلي. وحينها بدأت في البكاء.

عندما لمست الممرضة كتفي كنت مازلت أبكي. قالت لي «لنذهب، تعالي، سأعطيك مهدئا». لم أرغب في تناول المهدئ، لم أرغب في أن يهدئ أي شيء من آلامي، ومكثت هناك حتى أخذوها إلى المشرحة. ثم أخذت سيارة أجرة ولحقت بكِ لدى الصديقة التي كنت ضيفة لديها. وفي المساء نفسه كنتِ بالفعل في منزلي.

وسألتني أثناء العشاء: «أين أمي؟».

عندئذ قلت لك: «إن أمك قد رحلت، ذهبت في رحلة، رحلة طويلة إلى السماء». أكملت برأسك الأبيض تناول الطعام في صمت، وبمجرد أن انتهيتِ سألتني بصوت جاد: «هل يمكنني تحيتها يا جدتي؟» أجبتك قائلة: «بالتأكيد يا حبيبتي»، وأخذتك من ذراعك وخرجت بك إلى الحديقة. ووقفنا طويلا فوق الحشائش في الحديقة، بينما أنت تلوحين للنجوم بيدك لتقولي وداعا...

1 ديسمبر

في هذه الأيام أشعر بضيق شديد. ولم يكن هناك شيء محدد تسبب في ذلك، فهذا حال الجسد، لديه توازناته الداخلية، يكفي «اللاشيء» ليعكر من صفوه.

صباح أمس، عندما أتت السيدة روزمان ومعها المشتريات، ورأت وجهي أسود، قالت إن الخطأ خطأ القمر. بالفعل ففي الليلة الماضية كان القمر مكتملا. وإذا كان يمكنه أن يحرك البحار، وأن يسرع في نمو الهندبا البرية في البستان، لماذا إذن لا تكون له القدرة على أن يؤثر في حالتنا النفسية؟ من أي شيء سوى الماء والغازات والمعادن صُنعنا؟

على كل حال فقبل أن تنصرف تركت لي رزمة لا بأس بها من الجرائد وهكذا قضيت اليوم كله وأنا متبلدة بين صفحاتها.

هذا ما أقع فيه كل مرة! فبمجرد أن أراها أقول لنفسي: حسنا، سأتصفحها قليلا، ليس لأكثر من نصف ساعة، ثم أذهب لأقوم بعمل شيء أكثر جدية وأهمية. ولكنني في كل مرة لا أبتعد حتى أقرأها لآخر كلمة.

أشعر بالحزن للحياة التعيسة لأميرة موناكو، وأشعر بالاستياء من قصص الحب الضائعة التي تعيشها أختها، وينبض قلبي

لأي خبر مثير للعواطف يُقص عليّ باستفاضة.

وتأتي بعد ذلك الخطابات! مازلت أندهش لما يجرؤ البشر على كتابته! لست عجوزا رجعية، على الأقل لا أعتقد أنني كذلك، على كلٍّ لا أنكر أن بعض الحريات تجعلني أشعر بالارتباك.

انخفضت الحرارة اليوم كثيرا، ولم أذهب للتنزه في الحديقة، كنت أخشى أن يكون الهواء قاسيا، وباشتراكه مع الجليد الذي أحمله بداخلي كان يمكن أن يكسرني، كما يحدث لفرع شجرة عجوز مُجمد.

من يدري إذا كنت مازلتِ تقرئين ما أكتبه، أو بمعرفتك لي أكثر، شعرتِ برفض شديد جعلك لا تستطيعين الاستمرار في القراءة. ولكن العجلة التي تتملكني في هذه اللحظة لا تسمح لي بالإطالة، لا أستطيع التوقف الآن، أو أن أغير من اتجاهي.

حتى لو كنت احتفظت بذلك السر لأعوام طويلة، الآن لا يمكنني الاستمرار في ذلك. لقد قلتِ لك، في البداية إنه أمام حزنك لأن ليس لكِ مركز، كنت أشعر أنا أيضا بالحزن نفسه وربما بحزن أكبر منه.

أعرف أنك تقصدين بالمركز - أو الأفضل أن نقول بفقدانه - شيئا مرتبطا بشدة بحقيقة أنكِ لم تعرفي مطلقا من هو أبوك. وبالرغم من أنني كان يمكنني أن أقول لك أين أمك، بالرغم من الحقيقة المؤسفة، فإنني لم أكن مطلقا كفئا بأن أجيب عن تساؤلاتك عن أبيك.

كيف كان يمكنني هذا؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة عنه.

في إحدى إجازات الصيف، قضت إيلاريا إجازة طويلة وحدها

في تركيا، وعادت من تلك الإجازة في حالة مثيرة للاهتمام. فقد كانت قد تجاوزت الثلاثين وفي تلك المرحلة تصاب السيدات بثورة جنونية غريبة، وخاصة إذا لم يكن لديهن أطفال، فيرغبن في طفل بأي ثمن، بأي طريقة، ومع من ليس لهذا أي أهمية.

في تلك الفترة، كن جميعهن ينتمين للحركة النسائية، أمك ومعها مجموعة من الصديقات شكلن ناديا. كانت هناك كثير من الحقائق فيما كن يقلن، أشياء يشاركن فيها، ولكن بين تلك الحقائق، كانت هناك اجتهادات كثيرة، وأفكار غير صحية ومعوجة. إحداها تقول إن للسيدات الحق الكامل في التحكم في أجسادهن، إذن إنجاب طفل أو عدم الإنجاب هو قرار يرجع بكامله لهن. لم يكن الرجل سوى ضرورة بيولوجية، وكان يُستخدم كمجرد احتياج بسيط.

لم تكن أمك الوحيدة التي تصرفت هكذا، فلقد قامت اثنتان أو ثلاث من صديقاتها بالإنجاب بالطريقة نفسها. أتعلمين إنه ليس شيء صعب التفهم، فالقدرة على إعطاء الحياة تعطي الشعور بالقدرة المطلقة، عندئذ يبتعد عنك الموت والظلام وعدم الثبات فستتركين للعالم جزءا آخر منك، وأمام هذه المعجزة يختفي كل شيء.

وليؤكدن أبحاثهن كانت أمك وصديقاتها يشرن إلى عالم الحيوان وكن يقلن: «إن الإناث يلتقين مع الذكور في لحظة التزاوج فقط، ثم يذهب بعد ذلك كل منهما لطريقه ويبقى الأطفال مع الأم».

إذا كان هذا حقيقيا أم لا، لا أستطيع أن أتحقق منه. ولكن

ما أعلمه هو أننا كائنات بشرية، كل منا يولد بوجه مختلف عن الآخرين، وهذا الوجه يستمر معنا مدى الحياة.

أما الظبي فيولد بفم ظبي، والأسد بذلك الذي للأسود، كلهم متشابهون تمام التشابه مع حيوانات من الصنف نفسه.

ففي الطبيعة الشكل ثابت، بينما الوجه يخص الإنسان فقط وليس آخر. الوجه. أتفهمين؟ في الوجه يكمن كل شيء. فهناك تاريخك، فيه يوجد أبوكِ وتوجد أمكِ، أجدادك، وأجداد أجدادك، وربما يوجد أيضا خال بعيد لا يتذكر أحد عنه شيئا. فخلف هذا الوجه توجد الشخصية، والأشياء الحسنة والأشياء السيئة التي ورثتِها من أسلافك.

إن وجهنا هو هويتنا الأولى، أي ما يسمح لنا بأن نجد مكاننا في الحياة وأن نقول إننا هنا. وهكذا، وعندما بدأتِ في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة الوقوف ساعات طويلة أمام المرآة، أدركتُ عمن تبحثين.

من المؤكد أنك كنت تنظرين إلى الحبوب أو النقاط السوداء، أو إلى أنفك الذي ازداد حجمه فجأة، ولكن أيضا عن شيء آخر.

فبالعثور على ملامح عائلة والدتك وأبعادها كنت تحاولين أن تأخذي فكرة عن وجه الرجل الذي جاء بكِ إلى العالم، وهو الشيء الذي لم تفكر فيه والدتك وصديقاتها بالقدر الكافي. يوما ما عندما ينظر الابن إلى المرآة، سيدرك أن بداخله كان يوجد شخص آخر وسيرغب في معرفة كل شيء عن هذا الشخص الآخر. وهناك أشخاص يقتفون طيلة حياتهم وجهي أمهم وأبيهم الحقيقيين.

كانـت إيلاريا مقتنعة بأن أهمية الوراثة فـي تطـور حيـاة ما لا تعني تقريبا أي شيء. بالنسبة إليها كان أهم شيء هو التربية والبيئـة، وطريقـة النمـو. لم أكـن أتفق معهـا في فكرتهـا هذه، بالنسبة إليّ كان العاملان يسـيران في خطوات متساوية، نصف من البيئة ونصف مما يكمن بداخلنا منذ الولادة.

فقبـل فتـرة ذهـابك إلـى المدرسـة لم تكـن لـديّ أي أسـئلة، لـم تكوني تسـألين مطلقا عن والدك، وكنـت أنا أتجنب التحدث معك عن هذا.

ومـع دخولـك إلـى المدرسـة الابتدائيـة، وبفضـل زميلاتـك ومواضيع الإنشـاء اللعينـة التي تطلبها المدرسـات، أدركت فجأة أنه ينقصك شيء في حياتك اليومية. بالطبع كان هناك العديد فـي فصلـك مـن أبويـن منفصلـين، أو أوضـاع غيـر عـادية، ولكـن لم يكن أحد فيهـم لديه ذلك الفراغ الكامل الذي لديكِ عن والدك. كيف كان يمكنني أن أشـرح لك وأنت في السادسـة أو السـابعة ما فعلته أمك؟ ثم في الحقيقة أنا أيضا لم أكن أعرف شـيئا عـن هذا، سـوى أنها حملـت بكِ هنـاك في تركيـا. وهكذا لأختـرع قصـة يمكـن تصديقهـا اسـتخدمت المعلومـة الوحيدة الأكيدة لدي: بلد المنشأ.

ابتعـت لـك كتاب حواديت شـرقية، وكنت كل ليلـة أقرأ عليك واحـدة. وعلى أسـاس تلك الحواديت اخترعـت حدوتة خصيصا لـك، أمازلـت تذكرينها؟ إن والدتك كانت أميرة ووالدك أمير بلد «منتصف القمر» ومثل كل الأمراء والأميرات كانا يحب أحدهما الآخـر إلى درجـة أن كلا منهما على اسـتعداد للموت في سـبيل

الآخر. ولكن كان هذا الحب موضع حقد كثيرين. وكان أكثر الحاقدين هو كبير الوزراء، رجل قادر وشرير ولذلك ألقى بلعنة بشعة على الأميرة والمخلوقة التي كانت تحملها في أحشائها، ولحسن الحظ أن أخبر أحد الخدام المخلصين الأمير، وهكذا تركت أمك القصر ليلا وهي متنكرة في زي فلاحة وهربت إلى هنا، في تلك المدينة التي فيها وُلدت.

عندئذ كنت تسألينني بعينين لامعتين: «أنا ابنة أمير؟»

كنت أجيبك: «بالتأكيد، ولكن هذا سر خطير جدا، سر لا يجب أن تخبري به أحدا».

ماذا كنت أتمنى أن أفعل بتلك الكذبة الغريبة؟ لا شيء، مجرد أن أهديك بضعة أعوام من السعادة. كنت أعلم أنكِ يوما ما ستكفين عن تصديق كذبتي الغبية. وكنت أعلم أيضا أنه في هذا اليوم نفسه، من المحتمل أن تبدئي في احتقاري. على كل حال، كان مستحيلا تماما بالنسبة إليّ الا أقصها عليك، حتى باستجماع الشجاعة القليلة التي أمتلكها لم أكن سأنجح في أن أقول لك: «أجهل من هو أبوك، ربما كانت أمك نفسها تجهل من هو».

كانت تلك هي سنوات الحرية الجنسية، كانت الممارسات الجنسية تُعتبر وظيفة عادية للجسم، كانوا يقومون بها عند الرغبة، يوما مع شخص واليوم التالي مع شخص آخر. لقد رأيت بجوار والدتك عشرات من الشباب، ولا أتذكر أن استمر أحدهم معها لمدة أكثر من شهر. وبسبب هذا التذبذب العاطفي، أصيبت إيلاريا بتقلب أكثر من آخرين لأنها لم تكن مستقرة أكثر

مــن الآخرين. وحتى إن لم أكن قــد منعتها مطلقا، ولم أنتقدها مطلقــا بــأي طريقة، فإنني كنــت مضطربة بسـبب تلك الحرية المفاجئــة فــي العادات. ولم يكــن ما صدمني هو هــذا الاختلاط ولكن الفقر الشـديد في المشــاعر. فمع ســقوط الممنوعات وعدم وجــود الارتبــاط بــين الأشــخاص، ســقط أيضا الحب وســقطت المشاعر.

كانــت إيلاريــا وصديقاتهــا يبدين لــي كأنهن ضيفــات وليمة مصابــات بنزلــة برد حادة، وكن يأكلن مــن كل ما يقدم لهن ولكن من دون أن يســتطعمن أي شــيء، فالجزر، والمشــوي والقشدة لها جميعها الطعم نفسه.

فــي اختيــار والدتــك كان هنــاك تأثيــر الحريــة الجديدة في العادات، ولكن ربما كانت هناك آثار شيء آخر.

كم من الأشياء نعرفها عن وظيفة العقل؟ الكثير، ولكن ليس كل شــيء. من يســتطيع أن يعرف إذن، إنه في مكان ما مظلم في عقلها الباطن، لم تســتنتج أن هذا الشــخص الــذي كان أمامها لــم يكن أباهــا؟ هل هذا ما تســبب في القلق وعدم الاســتقرار؟! طيلة فترة طفولتها، ومراهقتها وشبابها لم أسأل نفسي مطلقا هذا السؤال، فقد كان التظاهر الذي تربت فيه لا غبار عليه.

ولكــن عندما عادت مــن تلك الرحلة، وهــي حامل منذ ثلاثة أشهر، عاد كل شيء إلى ذهني. لا يمكن الهرب من الزيف، والكذب، أو الأفضل أن نقول، إنه يمكن الهرب لفترة، ثم - عندما لا نتوقع أن يحدث أي شــيء - تظهر من جديد، ليس بطريقة رقيقة مثل اللحظــة التي قيلــت فيها، أو كما هي بريئة فــي ظاهرها، بل قد

تحولت تلك الكذبات في فترة البعد الصغيرة هذه إلى وحوش ضارية، إلى غول يأكل كل شيء.

تكتشفين ذلك، وبعدها بلحظة، ينقلب أمامك كل شيء، يلتهمونك أنتِ وكل من حولك بشراهة بشعة. ذات يوم، وقد بلغت العاشرة، عدتِ إلى المنزل باكية وقلتِ لي «كاذبة!».

وعلى الفور دخلتِ إلى حجرتك وأغلقت الباب على نفسك، كنتِ قد اكتشفتِ كذب الحدوتة.

«كاذبة» يمكن أن يصبح هذا عنوانا لسيرتي الذاتية، فمنذ أن ولدتُ كذبتُ مرة واحدة وبها دمرتُ ثلاث حيوات.

4 ديسمبر

مازالت أنثى الشحرور أمامي على المائدة. يبدو أن شهيتها أضعف من الأيام السابقة، فبدلا من أن تناديني من دون توقف، تقف ساكنة في مكانها، ولا تخرج رأسها من فتحة الصندوق، أرى بالكاد بعض ريشات رأسها ظاهرة.

هذا الصباح، على الرغم من البرد، ذهبت إلى المشتل مع ربّي عائلة روزمان. كنت مترددة حتى اللحظة الأخيرة، كان الطقس سيئا جدا إلى درجة أنه يمكن أن يخيف دبا. وغير ذلك، كان هناك في داخل تجويف مظلم في قلبي صوت يقول لي: وماذا يهمك من زراعة أزهار جديدة؟

ولكن بينما كنت أتصل بمنزل روزمان لألغي الميعاد، رأيت من النافذة ألوان الحديقة المطفأة!

وندمت على أنانيتي، ربما لن أرى ربيعا آخر، أما أنتِ فمن المؤكد أنكِ سترين الكثير...

أشعر بالضيق الشديد هذه الأيام! عندما لا أكتب، أجد نفسي أدور في جميع الحجرات من دون أن أجد الراحة في أي مكان. لا يوجد عمل واحد من بين الأعمال القليلة المسموح لي بها، يسمح لي بأن أقترب من حالة الهدوء، أو بأن تُنزع ولو للحظة

واحدة الأفكار والذكريات التعيسة.

لـديّ انطبـاع بـأن وظيفـة الذاكرة تشـبه بطريقـة أو بأخرى وظيفة المجمد. أتتذكرين ماذا يحدث عندما تنتزعين من داخله طعاما مكث بالداخل مدة طويلة؟

فـي البداية يكون صلبـا مـثل الحـجارة، ولا تكـون له رائحة، ولا طعـم، ومغطـى بطبقة بيضاء، ولكن بمجـرد أن تضعيه فوق النـار، يبـدأ تدريجيـا فـي اسـتعادة شـكله ولونه، ويمـلأ المطبخ برائحتـه. هكـذا تقبـع الذكريـات الحزينـة لمدة طويلـة في أحد الكهـوف العديـدة للذاكـرة، تقبـع هنـاك سـنوات، بـل عشـرات السنوات، حياة بأكملها. ثم يحدث يوما ما أن تعود إلى السطح، ويعود من جديد الألم الذي كان قد اصطحبها في يوم من الأيام، يعود حادا ومؤلما كما كان ذلك اليوم منذ سنوات عديدة.

لقـد كنـت أحدثك عني، عن سـري. ولكن لروايـة قصة يجب العودة إلى بدايتها، والبداية في شبابي، في العزلة غير الطبيعية التي نشـأت فيها وعشـتها بعد ذلك بقية حياتي. في زمني، كان ذكاء المـرأة يعتبر صفة سـلبية في الزواج، فبالنسـبة إلى تقاليد ذلك العصر لم يكن على الزوجة سوى أن تكون أداة إنجاب ساكنة ومولعة. وكانت المرأة التي تسـأل كثيرا تعد زوجة فضولية، قلقة، وهـي آخر شـيء يتمناه الرجـل. ولهذا كان الشـعور بالوحدة في شبابي عظيما حقا.

والحـق يقـال، ففي الفترة بين الثامنة عشـرة والعشـرين من عمـري، نظـرا إلى أني كنت جميلة، وميسـورة الحال أيضا، كانت حولي زمرة من العشـاق. ولكن بمجرد أن كنت أظهر أنني أحسن

الحديث، وبمجرد أن كنت أفتح لهم قلبي وأحدثهم عن الأفكار التي تدور في ذهني، كان الجميع يبتعدون من حولي.

وبالطبع كان بإمكاني أن ألزم الصمت، وأن أظهر ما ليس فيّ، ولكن للأسف - أو لحسن الحظ - على الرغم من تربيتي كان هناك جزء بداخلي مازال حيا، وكان ذلك الجزء يرفض أن يتظاهر بالزيف.

وبعد انتهائي من المرحلة الثانوية- كما تعلمين- لم أستكمل دراستي لأن أبي اعترض على ذلك. وكان الأمر يتعلق بتنازل صعب جدا بالنسبة إليّ. ولهذا السبب كنت دائما شغوفة للمعرفة. فبمجرد أن يعلن أحد الشباب أنه يدرس الطب كنت أطارده بالأسئلة، كنت أريد أن أعرف كل شيء. وهذا ما كنت أفعله أيضا مع مهندسي، ومع محاميّ المستقبل.

كان تصرفي هذا يُغير كثيرا من مجرى الأمور، وكان يبدو منه أنني أهتم بالعمل أكثر من الشخص نفسه، وربما كانت هذه هي الحقيقة.

عندما كنت أتحدث مع صديقاتي وزميلاتي في الفصل، كان لديّ الانطباع بأنني أنتمي إلى عوالم بعيدة بُعد السنوات الضوئية. وكانت المسافة التي تفصل بيني وبينهم هي الخبث النسائي... حيث إنني كنت محرومة منه تماما، بينما قمن هن بتطويره إلى أقصى الدرجات. فخلف الكبرياء الظاهر، وخلف الثقة الواضحة، فإن الرجال شخصيات هشة إلى أقصى درجة، سُذّج، بداخلهم دوافع بدائية جدا، يكفي أن أتخطى الضغط على أحد تلك الدوافع ليسقطوا في المقلاة كالأسماك.

لقد أدركت ذلك متأخرا جدا، بينما كانت صديقاتي يعرفنه في ذلك الوقت في عمر الخامسة عشرة والسادسة عشرة. فبموهبة فطرية كن يقبلن الخطابات أو يرفضنها، وكن يكتبن بأسلوب أو بآخر، يعطين مواعيد ولا يذهبن، أو يذهبن متأخرات جدا. أثناء الرقص، كن يلمسن المنطقة المناسبة من الجسم، وفي أثناء ذلك كن ينظرن للرجل في عينيه بالتعبير العميق للطيور الشابة.

هذا هو الخبث النسائي، تلك هي الحيل التي كانت تتسبب في نجاحهن مع الرجال. ولكن أنا - أتفهمين؟- كنت كثمرة البطاطس، لم أكن أفهم أي شيء مما يحدث حولي. حتى إن بدا لك غريبا، كان هناك شعور بالإخلاص بداخلي، وهذا الإخلاص كان يسر إلى أنني لن أنجح مطلقا في خداع أي رجل.

كنت أعتقد أنه يوما ما سأجد شابا أستطيع أن أتحدث معه حتى الليل من دون أن أشعر بالتعب، وبالحديث المستمر سندرك أننا نرى الأشياء بالطريقة نفسها، وأننا نشعر بالمشاعر نفسها، عندئذ كان سيولد الحب، كان سيولد حب أساسه الصداقة والتقدير، وليس أساسه سهولة الخداع.

كنت أتمنى صداقة حب وفي هذا أفكر بطريقة الرجال، برجولة الأزمان الغابرة. فقد كانت علاقة المساواة على ما أعتقد هي التي تثير معجبيّ، وهكذا ببطء انتهى بي الأمر إلى أن أنتظر في الدور الذي عادة ما تنتظر فيه القبيحات. كان حولي الكثير من الأصدقاء، ولكنها كانت صداقات من طرف واحد. كانوا يلجأون إليّ فقط ليفصحوا لي عن آلامهم في الحب.

وتزوجت صديقاتي الواحدة تلو الأخرى، وفي لحظة ما من حياتي خيل إلي أنني لم أكن أفعل شيئا سوى الذهاب إلى حفلات الزواج. وأنجبت من كُنّ في سني الأطفال، وكنت أنا دائما الخالة العانس، كنت أعيش في منزلي مع والدي وأنا مستسلمة تماما لفكرة أنني سأعيش آنسة إلى الأبد.

كانت أمي تقول لي «ولكن ماذا يدور في رأسك، أمعقول ألا يعجبك لا هذا ولا ذاك؟!»، بالنسبة إليهم كانت الصعوبات التي أواجهها مع الجنس الآخر نتيجة غرابة طبعي. هل كان ذلك يضايقني؟! لا أعلم. في الحقيقة، لم أكن أشعر بداخلي برغبة جارفة في أن تكون لدي عائلة، بل إن فكرة إنجابْ طفل للعالم كانت تثير لديّ بعض الشك. لقد عانيت كثيرا في أثناء طفولتي، وكنت أخشى أن أتسبب في آلام مخلوق بريء. بل على الرغم من أنني كنت لاأزال أعيش في منزلي كنت أشعر بالاستقلال التام، كنت أمتلك كل ساعة من يومي.

ولكي أربح بعض النقود كنت أعطي دروسا في اللغتين اللاتينية واليونانية، مادتيّ المفضلتين، بجانب ذلك لم يكن لديّ التزامات أخرى، كان يمكنني أن أقضي فترات الظهيرة بأكملها في مكتبة الحي منى دون أن أفكر في أحد، وكان يمكنني أن أذهب إلى الجبل كلما أردت ذلك. فقد كانت حياتي- مقارنة بالأخريات - حرة، وكنت أخشى كثيرا فقدان تلك الحرية. ولكن مع مرور الوقت كنت أشعر بأن كل هذه الحرية وهذه السعادة الظاهرة مزيفة، وربما أيضا مفتعلة. فقد أخذت الوحدة - التي بدت في البداية كميزة - تصبح عبئا عليّ.

وقد بدأ والداي يتقدمان في السن، وكان أبي قد أصيب بأزمة قلبية، وانتهى الأمر بأنه كان يجد صعوبة في المشي. فكنت أمسكه من ذراعه كل يوم وأصحبه لنبتاع الجريدة، وكان عمري آنذاك يتراوح بين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين، وعندما كنت أنظر إلى صورتي التي تنعكس مع صورته في واجهة العرض الزجاجية كنت أشعر أنا أيضا بتقدمي في السن، وأدركت المسيرة التي ستؤول إليها حياتي: فبعد قليل سيتوفى أبي، وستتبعه أمي، وسأبقى وحيدة في منزل كبير مملوء بالكتب، وربما سأبدأ في الحياكة أو في رسم اللوحات الزيتية لأشغل وقت فراغي وستتبخر السنوات الواحدة تلو الأخرى.

حتى أنه في صباح يوم ما، سيقلق أحدهم لعدم رؤيتي عدة أيام، وسيستدعي رجال الإطفاء، الذين سيقومون بنزع الباب وسيجدون جسدي ملقى على الأرض. كنت قد مت، ولم يتبق مني سوى بعض العظام اليابسة مثل تلك التي تتبقى على الأرض عندما تموت الحشرات. وكنت أشعر بأن جسدي كامرأة يذبل من دون أن أعيش، وكان هذا يسبب لي إحباطا شديدا. ثم إنني كنت أشعر بأنني وحيدة، وحيدة جدا.

فمنذ ولادتي لم يكن لديّ قط من يمكنني التحدث معه. أقصد شخصا يمكنني التحدث معه فعلا. من المؤكد أنني كنت أتمتع بذكاء شديد، وكنت أقرأ كثيرا، كما كان يقول والدي، في النهاية، بنوع من الفخر: «إن أولجا لن تتزوج أبدا لأن عقلها كبير أكثر من اللازم».

ولكن كل هذا الذكاء المفترض لم يكن يقودني إلى أي

مكان، لم أكن مثلا جديرة بأن أرحل في رحلة طويلة أو أن أدرس شيئا بعمق. فبسبب أنني لم ألتحق بالجامعة كنت أشعر بأنني مهيضة الجناح. في حقيقة الأمر لم يكن هذا هو سبب عدم أهليتي، وعن عدم قدرتي على إتمام زيجاتي. فالواقع أن شيليمان كان قد اكتشف طروادة بمفرده.. ألم يكن معتمدا على ثقافته الشخصية كذلك؟ كان ما يوقفني هو شيء آخر، هو الميت الصغير بداخلي، أتتذكرين؟ لقد كان هو ما يوقفني، كان هو ما يمنعني من التقدم وكنت أنتظر. ولكن، ماذا أنتظر؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة.

ففي اليوم الذي أتى فيه أوجوستو أول مرة إلى منزلنا كان الثلج يتساقط. أتذكر هذا اليوم لأنه نادرا ما يسقط الثلج في منطقتنا، ولأنه بسبب الثلج نفسه في ذلك اليوم حضر ضيفنا متأخرا عن ميعاد الغداء. كان أوجوستو مثل والدي يعمل في استيراد البن. وكان قد حضر إلى تريستي ليتناقش حول بيع شركتنا: فبعد الأزمة القلبية التي أصابت والدي - الذي ليس له ورثة ذكور- قرر أن يتخلص من الشركة ليقضي الأعوام المتبقية له في سلام. لأول وهلة بدا لي أوجوستو سخيفا جدا. فهو بالنسبة إلينا «إيطالي»، ومثل كل الإيطاليين كان يتمتع بنوع من التكلف الذي يثير غضبي.

شيء غريب، ولكن كثيرا ما يحدث أن تسبب لنا الشخصيات المهمة في حياتنا ضيقا في بداية التعارف... بعد الغداء، ذهب والدي ليستريح وبقيت أنا وحدي في الصالون في صحبة الضيف في انتظار اللحظة التي سيستقل فيها القطار. كنت

غايـة فـي البـرود. وطـوال السـاعة التـي مكثناهـا معـا عاملته بمنتهـى الجفاء. وكنت أجيبه عن كل سـؤال بنصـف إجابة، وإذا لزم هو الصمت، كنت أصمت أنا أيضا. وعندما قال لي أمام الباب «إذن وداعا يا آنستي» قدمت له يدي بالبعد نفسه الذي تعامل به المرأة النبيلة رجلا من طبقة أقل.

وفـي هذا المسـاء قالت والدتـي: «على الرغم من كون السـيد أوجوسـتو إيطاليا فإنه شـخصية مهذبة». فأجابها والدي: «وهو أيضا ماهر في عمله». عند هذه اللحظة خمني ماذا حدث؟ لقد نطق لساني وحده وقال: «ولا يرتدي دبلة في إصبعه!». وقلت هذا بحيوية مفاجئة. وعندمـا أجابني والدي: «في الواقع، المسـكين أرمـل». تحـول لونـي إلـى الأحمر بلـون الفلفل وشـعرت بخجل يعترينـي. وبعد يومين، وعند عودتي من أحد الدروس وجدت في مدخل المنزل طردا وكان لون ورقة الهدية فضيا.

كان أول طرد تلقيته في حياتي. ولم أنجح في تخيل من يمكنه إهدائي شـيئا مثل هذا. وأسـفل ورقة الهدية كانت توجد بطاقة كُتب عليها: هل تعرفين هذه الحلوى؟ وأسفل تلك العبارة إمضاء أوجوستو. وفي المساء لم أستطع النوم بوجود تلك الحلوى فوق «الكومودينو». كنت أقول لنفسـي: من المؤكد أنه أرسـلها مجاملة لوالدي.

وفـي هـذا الوقت كنـت ألتهـم المرزبانية واحدة تلـو الأخرى. وبعد ثلاثة أسابيع عاد أوجوسـتو إلى تريسـتي «للعمل». قال هذا فـي أثناء الغداء، ولكن بدلا من أن يرحل على الفور، مثلما فعل المـرة السـابقة، توقف قليلا فـي المدينة. وقبـل أن ينصرف طلب

من والدي الإذن في أن يأخذني في نزهة بالسيارة وسمح له أبي بذلك من دون حتى أن يسألني رأي. وأخذنا ندور طوال فترة بعد الظهيرة عبر طرقات المدينة، كان هو قليل الكلام، وكان يسألني عن الآثار ثم يلتزم الصمت ليستمع إليّ.

كان يصغِي إليّ، هذا الشيء بالنسبة إلي كان معجزة حقيقية.

وفي صباح اليوم الذي رحل فيه أرسل إليّ باقة من الأزهار الحمراء. كانت أمي منفعلة جدا لذلك، وحاولت أنا التظاهر بغير ذلك، ولكني انتظرت عدة ساعات لأفتح البطاقة وأقرأها. وفي فترة وجيزة أصبحت زياراته أسبوعية، فقد كان يأتي إلى تريستي كل يوم سبت ويعود إلى مدينته ليعاود الرحيل يوم الأحد.

أتتذكرين ماذا كان يفعل الأمير الصغير ليروض الثعلب؟ كان يذهب كل يوم أمام النفق وكان ينتظر لحظة خروجه. وهكذا رويدا رويدا بدأ الثعلب في التعرف عليه ولم يعد يشعر بالخوف. ليس هذا فقط بل إنه قد تعلم أن ينفعل عند رؤية كل ما يذكره بصديقه الصغير.

وبعد أن افتتنت بالطريقة نفسها، كنت أنا أيضا في انتظاره أبدأ في الانفعال بدءا من يوم الخميس، وكان مشروع الترويض قد بدأ بالفعل. وبعد شهر من هذا الوقت أصبحت حياتي كلها تدور حول انتظار نهاية الأسبوع. وفي وقت قليل نشأت بيننا ثقة عظيمة.

وأخيرا كنت أستطيع التحدث معه، كان يقدر ذكائي ورغبتي في المعرفة، وكنت أنا أُعجب برصانته، واستعداده للإصغاء،

ذلك الشعور بالأمان والحماية الذي يمكن أن يعطيه رجل متقدم في السن لأي امرأة شابة.

وتزوجنا في احتفال بسيط في الأول من يونيو العام 1940. وبعد ذلك بعشرة أيام بدأت الحرب في إيطاليا. ولأسباب أمنية لجأت أمي إلى بلد جبلي في فينيتو بينما ذهبت أنا مع زوجي إلى أكويلا. ربما يبدو لك أنت - التي قرأتِ تاريخ تلك السنوات في الكتب فقط والتي قمتِ بدراستها بدلا من معاصرتها - شيئا غريبا أنني لم أشر لك أبدا إلى كل المآسي التي حدثت في تلك الفترة. لقد كانت هناك الفاشية والقوانين العنصرية وكانت الحرب متفجرة، بينما استمررت أنا في الاهتمام بتعاستي الصغيرة الشخصية فقط، وبأدق التغيرات في نفسي. ولكن لا تعتقدي أن تصرفي هذا كان استثنائيا، بل على العكس، فيما عدا أقلية صغيرة من المهتمين بالسياسة كان الجميع في بلدتي يتصرفون بالطريقة نفسها. فعلى سبيل المثال كان أبي يعتبر الحركة الفاشية مجرد تهريج وعندما كان يوجد في المنزل كان يصف الزعيم «ببائع البطيخ»، ولكن بعد ذلك كان يذهب للعشاء مع زعماء الفاشية، وكان يمكث ليتحدث معهم حتى ساعات متأخرة من الليل.

وبهذه الطريقة نفسها كنت أجد أن فكرة الذهاب إلى السبت الإيطالي والمشي والغناء وأنا أرتدي ملابس الأرامل فكرة سخيفة ومثيرة للضيق، ولكن على كل حال كنت أذهب، لأنني كنت أعتقد أنه مجرد إزعاج يجب على المرء أن يخضع له ليعيش في هدوء.

مـن المؤكـد أن تصرفا مثل هذا لا يعـد تصرفا رائعا، لكنه كان تصرفا شائعا حيث كانت الحياة في هدوء في ذلك الوقت - وربما الآن أيضا- هي أحد أهم الأشياء التي يتطلع إليها الإنسان.

في أكويلا ذهبنا لنعيش في منزل عائلة أوجوستو، وهو منزل كبير في الطابق الأول من قصر فاخر في وسط المدينة.

كان مجهزا بأثاث كئيب وثقيل، وكانت إضاءته ضعيفة ومظهره يبعث على التشاؤم، وبمجرد أن دخلته شعرت بشيء ما يعتصر قلبي، وسألت نفسي هل يجب أن أعيش هنا مع رجل لم أعرفه سوى ستة أشهر في مدينة ليس لي فيها صديق واحد؟ أدرك زوجي على الفور حالة الاختناق التي حدثت لي، وفي أول أسبوعين حاول المستحيل ليخرجني منها. فكنا نأخذ السيارة ونذهب لنتجول بها فوق الجبال وفي الجوار يوما بعد يوم تقريبا. وكلانا كان يتمتع بحب كبير للنزهة. عندما كنت أرى تلك الجبال الجميلة، وتلك القرى المعلقة على قمم الجبال كما هو الحال في المغارات كان يبدو لي أنني لم أترك الشمال حيث يوجد منزلي. وكنا نستمر في الحديث كثيرا، وكان أوجوستو يحب الطبيعة. وخاصة الحشرات، وأثناء سيرنا كان يشرح لي أشياء عديدة. فأنا أدين له بجزء كبير من معرفتي بالعلوم الطبيعية وفي نهاية الأسبوعين اللذين تم اعتبارهما رحلة شهر العسل، عاد هو إلى عمله، وبدأت أنا حياتي وحيدة في المنزل الكبير. وكانت معي خادمة عجوز هي التي كانت تهتم بالأعمال الرئيسية.

وكسائر زوجات الطبقة البرجوازية كان عليّ فقط أن أعد الغداء والعشاء، غير ذلك لم يكن لديّ أي شيء لأفعله. وكنت قد

اعتدت أن أخرج كل يوم وحدي لأقوم بنزهة طويلة كنت أجوب كل الطرقات ذهابا وإيابا بخطوة غاضبة. فقد كانت تدور في رأسي الكثير من الأفكار وبين كل هذه الأفكار لم أنجح في أن أصل لأي شيء. هل أحبه - كنت أتساءل وأنا أتوقف فجأة - أم كان الأمر كله مجرد غلطة كبيرة؟

عندما كنا نجلس على مائدة الطعام أو في المساء في الصالون كنت أنظر إليه، وكنت أسأل نفسي وأنا أتطلع إليه عن شعوري، كنت أشعر بالحنين، هذا مؤكد، ومن المؤكد أنه هو أيضا كان يشعر بهذا تجاهي. ولكن هل هذا هو الحب؟

هل كل شيء يكمن في هذا؟ وبما أنني لم أجرب أي شيء آخر لم أنجح في أن أجد لنفسي إجابة. وبعد شهر وصلت الثرثرة الأولى إلى أذن زوجي. وصلت له شائعات غير معروفة: أن الألمانية تذهب لتتجول وحدها في الطرقات في أي وقت. كنت مندهشة لذلك، لقد كبرت على تقاليد مختلفة، ولم أكن قط لأتخيل أن نزهتي البريئة يمكن أن تتسبب في فضيحة. ولقد استاء أوجوستو لهذا، وكان قد أدرك أن هذا الشيء غير مفهوم بالنسبة إليّ، ولكن على كل حالٍ فلتهدئة الموقف في الجوار وللحفاظ على اسمه سألني أن أتوقف عن التنزه بمفردي.

وبعد مرور ستة أشهر من هذه الحياة شعرت بأنني انطفأت تماما وأصبح الميت الصغير بداخلي ميتا ضخما، وكنت أتصرف كأنني إنسان آلي، وفقدت عيناي بريقهما. وعندما كنت أتحدث، كنت أشعر كأن كلماتي بعيدة عني، كأنها تخرج من فم إنسان آخر. وفي هذا الوقت كنت قد تعرفت على زوجات بعض زملاء

أوجوستو، وكنت ألتقي بهن يوم الخميس في أحد مقاهي وسط المدينة.

وعلى الرغم من أننا كنا تقريبا متقاربين في السن، فإن الأشياء المشتركة بيننا كانت قليلة جدا. كنا نتحدث اللغة نفسها ولكن ربما كانت هذه هي النقطة الوحيدة المشتركة بيننا.

وبعد فترة قصيرة من عودته إلى مسقط رأسه بدأ أوجوستو يتصرف مثل أي رجل من منطقته. فأثناء تناول الطعام كنا نجلس في سكون، وعندما كنت أجتهد لأقص عليه شيئا كان يجيبني بنعم أو لا أو بمجرد إيماءات بسيطة، ثم كثيرا ما كان يذهب في المساء إلى النادي، وعندما يجلس في المنزل كان ينفرد في مكتبه، وذلك ليعيد ترتيب مجموعاته من الحشرات. وكان حلمه الكبير هو اكتشاف حشرة غير معروفة لأحد وهكذا يصبح اسمه مخلدا إلى الأبد في الكتب العلمية. أما أنا فكنت أريد أن أخلد اسمه بطريقة أخرى، أي عن طريق طفل، فقد كنت أبلغ من العمر ثلاثين عاما وكنت أشعر بأن الزمن ينزلق من فوق كتفي بسرعة.

ومن وجهة النظر هذه كانت الأشياء تزداد سوءا، فبعد الليلة الأولى، التي كانت محبطة للغاية لم يحدث شيء آخر. وكنت أشعر بأن أوجوستو لم يكن يريد سوى شخص، يوجد معه في المنزل في أوقات الوجبات، أو أن يعرضه بفخر يوم الأحد في الكنيسة، أما عن الشخص نفسه فبخلاف تلك الصورة المطمئنة لم يكن يهمه شيء، ولكن أين اختفى الشخص الممتع والمستعد دائما لملاطفتي؟ هل من الممكن أن ينتهي الحب بهذه الطريقة؟

كان أوجوستو قد قص عليّ أن ذكور الطيور في الربيع تغني بصوت عال لتعجب الإناث وذلك ليدعوهن ليدخلن معهم إلى العش. هل فعل هو أيضا ذلك، وبمجرد أن تأكد أنني معه في العش لم يعد يهتم بوجودي، كنت هناك، كنت أدفئه فقط.

هل كنت أكرهه؟ لا، يمكن أن يبدو لك هذا عجيبا ولكنني لم أنجح في أن أكرهه. فلتكرهي أحدا لا بد أن يكون قد جرحك، أو سبب لك ألما. ولكن أوجوستو لم يفعل لي أي شيء، وتلك كانت الكارثة. فمن الأسهل أن يموت الإنسان من اللا شيء أكثر من الألم، فالإنسان يمكنه أن يتمرد على الألم، ولكنه لا يستطيع فعل هذا أمام اللاشيء.

وعادة عندما كنت أتحدث مع والديّ كنت أقول لهما إن كل شيء على ما يرام، كنت أجتهد لأتظاهر بصوت العروس الشابة السعيدة. كانا واثقين بأنهما تركاني في أيدٍ أمينة، ولم أكن أريد أن أهز ثقتهم هذه. كانت أمي دائما مختبئة في الجبل، أما أبي فقد مكث وحده في منزل العائلة مع قريبة له ترعاه.

وكان يسألني مرة في الشهر: «أخبار جديدة؟» وكنت أجيبه عادة بلا، ليس بعد. وكان متمسكا بشدة بأن يكون له حفيد، ومع تقدمه في السن أصبح يتمتع بنوع من الرقة التي لم يكن يمتلكها من قبل. وكنت أشعر به قريبا مني بهذا التغيير، وكان يؤسفني أن أخيب رجاءه.

ولكن في الوقت نفسه لم تكن لديّ الثقة الكافية التي تسمح لي بأن أقص عليه أسباب هذا العقم المستمر. وكانت أمي ترسل إليّ بخطابات طويلة مملوءة بالرموز.

كانت تكتب لي في مقدمه الورقة: ابنتي الغالية، ثم تسرد لي بالتفاصيل كل الأشياء الصغيرة التي تحدث لها في أثناء اليوم. وفي النهاية كانت تخبرني دائما بأنها انتهت من العمل في طقم التريكو الذي تصنعه للحفيد المنتظر. وفي هذا الوقت كنت أنغلق على ذاتي، وكنت كل صباح أنظر إلى نفسي في المرآة وأجد أنني أصبحت أكثر قبحا. ومن حين إلى آخر في المساء كنت أقول لأوجوستو: «لماذا لا نتحدث؟» فكان يجيبني: «عن ماذا ؟»، من دون أن يرفع عينيه عن العدسة التي يفحص بها إحدى حشراته. كنت أقول: لا أعلم ربما يمكننا أن نحكي شيئا. عندئذ كان يقوم هو بهز رأسه ويقول: أولجا، إنك تملكين بالفعل خيالا مريضا.

من المعروف أن الكلاب بعد فترة تعايش طويلة مع سيدها ينتهي بها الأمر رويدا رويدا لأن تصبح مثله. وكان لديّ الانطباع أن هذا الشيء نفسه يحدث لزوجي، فكلما مر الوقت أصبح يشبه الخنفساء في كل شيء. فلم يعد هناك أي شيء إنساني في تصرفاته، لم تعد تصرفات تلقائية ولكن هندسية، فكانت كل تصرفاته تحدث في قفزات. وكذلك لم تكن في صوته أي بصمة، فقد كان صوته يصعد بضوضاء معدنية من مكان ما غير محدد في حنجرته. كان يهتم بحشراته وبعمله بطريقة استحواذية. ولكن، وبجانب هذين الشيئين لم يكن هناك أي شيء آخر يسبب له أدنى قلق. وفي إحدى المرات كان قد أطلعني على حشرة رهيبة وهو ممسك بها بالملقاط، وكان اسمها العلمي هو «صرصار الخلد». وقال لي: «انظري إلى فكه، إنه بمثل هذا الفك يمكنه حقا التهام أي شيء».

وهذه الليلة نفسها حلمت به بهذا الشكل، كان هائل الحجم، وكان يلتهم لباس عرسي كأنه مصنوع من الكرتون. وبعد عام بدأنا ننام في غرفتين منفصلتين، كان هو يسهر إلى وقت متأخر مع حشراته، ولم يكن يريد إزعاجي، هكذا قال لي.

بما رويته عن زواجي سيبدو لك شيء رهيب إلى حد كبير ولكن لم يكن هناك ما يدعو إلى الدهشة. ففي ذلك الوقت كانت الزيجات كلها هكذا، جحيم منزلي صغير فيه، إن آجلا أو عاجلا، ينهزم أحد الزوجين. ولكن لماذا لا أتمرد، لماذا لا آخذ حقيبتي وأعود إلى تريستي؟ لأنه في تلك الأوقات لم يكن هناك طلاق ولا انفصال.

ولإنهاء زواج يجب أن يكون هناك سوء معاملة واضح، أو أن يتميز الفرد بنوع من الطباع المتمردة فيهرب وأن يذهب بعيدا إلى الأبد ليجول في العالم. ولكن كما تعلمين، لم يكن التمرد من طبعي وأوجوستو لم يرفع مطلقا معي- لن أقول إصبعه- بل حتى صوته، ولم يجعلني أحتاج إلى شيء على الإطلاق.. يوم الأحد، عند عودتنا من القداس، كنا نتوقف في محل حلويات الإخوة نورزيا، وكان يبتاع لي كل ما أتمناه.

ولن يكون من الصعب عليك أن تتخيلي كيف كنت أستيقظ كل صباح. وبعد ثلاثة أعوام من الزواج لم تكن لديّ سوى فكرة واحدة في رأسي هي الموت.

ولم يكن أوجوستو قد تحدث معي مطلقا عن زوجته السابقة، والمرات النادرة التي سألته فيها، بحرص، كان يغير الموضوع. ومع مرور الوقت وأنا أسير في ظهيرة أيام الشتاء بين تلك الحجرات

الخاوية اقتنعت أن آدا - وهو اسم الزوجة الأولى - لم تكن قد ماتت بسبب مرض أو مأساة ولكنها انتحرت. وعندما كانت الخادمة تخرج كنت أقضي وقتي في محاولة خلع الموائد الخشبية وإعادة ترتيب الأدراج، كنت أبحث بعصبية عن دليل، عن أي علامة تؤكد شكي هذا.

وفي يوم ممطر، وفي قاع أحد الدواليب وجدت ملابس امرأة، إنها ملابسها. أخرجت أحد أثوابها الداكنة وارتديته، كنا تقريبا نرتدي المقاس نفسه. وعندما نظرت إلى نفسي في المرآة بدأت أبكي. كنت أبكي بطريقة مهينة. من دون أي نحيب كمن أدرك بالفعل أن قدره تحدد بالفعل. وفي إحدى زوايا المنزل كان يوجد مصلى من الخشب الثقيل والذي كان ملكا لوالدة أوجوستو، وقد كانت امرأة متدينة جدا. وعندما لم أكن أجد ما أفعله كنت أغلق على نفسي في هذه الحجرة وأجلس هناك بالساعات، ويداي معقودتان. هل كنت أصلي؟ لا أعرف.

كنت أتحدث أو كنت أحاول التحدث مع شخص ما والذي كنت أفترض أنه موجود في مكان ما فوق رأسي. كنت أقول: إلهي، اجعلني أعثر على طريقي، وإذا كان هذا هو طريقي ساعدني على احتماله.

وكان ترددي المعتاد على الكنيسة - والذي كنت مجبرة عليه اجتماعيا كزوجة - يدفعني لأجد نفسي من جديد أمام العديد من التساؤلات، تساؤلات كنت قد دفنتها بداخلي منذ الطفولة. وقد كان البخور يزعجني وكذلك موسيقى الأرغن، وعندما كنت أستمع إلى قراءة الكتاب المقدس كان هناك شيء ما يضطرب بضعف في داخلي.

ولكـن عندمـا كنت أقابل كاهن الكنيسـة فـي الطريق - خارج الحوائط المقدسة - عندما كنت أنظر إلى أنفه الإسفنجي الشكل وعينيـه الشـرهتين، وعندمـا كنت أسـتمع إلـى أسـئلته التافهة والمتأنقة بطريقة واضحة، لم يكن هناك أي شيء يهتز بداخلي، وكنت أقول لنفسـي: «إليك! ليسـت المسـألة سوى خدعة، طريقة مـا ليجعلوا العقول الضعيفـة تتحمل القمع الذي تعيش فيه». ولكـن علـى الرغم مـن ذلك، في صمـت المنزل، كنـت أحب قراءة الإنجيل. وكنت أجد كلمات عجيبة إلى حد أنني كنت أكررها أكثر من مرة بصوت مرتفع.

لـم تكـن عائلتـي متدينـة مطلقـا، كان أبي يعد مفكـرا حرا، وكانت أمي، والتي كانت قد اهتدت بالفعل منذ جيلين - كما قلت لك - تذهب إلى القداس كنوع من اللياقة الاجتماعية ليس إلا. وفي المرات النادرة التي كنت أسألها فيها عن الأمور الدينية كانت تقول لي: «لا أعلم، فإن عائلتنا لا دين لها»، لادين لها! كان لتلك العبـارة ثقـل جلمود على المرحلة الأكثر حساسـية في طفولتي، تلك التي كنت أسأل نفسي فيها عن أكثر الأشياء أهمية.

وكان هنـاك نـوع من علامـات الخزي في تلـك الكلمات، فقد تركنا دينا لنعتنق دينا آخر لا نكن له أي احترام. لقد كنا خونة، وكالخونة لم يكن لنا مكان لا في السماء ولا على الأرض، ولا في أي مكان.

وهكذا، وبخلاف الحكايات القليلة التي تعلمتها من الراهبات، فحتى سن الثلاثين، لم أعرف أي شيء آخر عن الحقائق الدينية. «إن ملكوت السموات بداخلكم»، كنت أردد تلك الكلمات وأنا أسير

فـي المنــزل الخاوي. كنــت أردد تلك العبارة وأنا أحــاول أن أتخيل أيــن يمكــن أن يكــون. كنت أرى عينــي مثل الميكروســكوب تتخلل فــي داخلي وتتفحص عطفات قلبي، والثنيات الأكثر غموضا في عقلي.

أيــن يكمــن ملكوت الله؟ لم أنجح في رؤيته، كان هناك ضباب فــي قلبــي، ضبــاب كثيف، بدلا مــن الهضــاب الخضــراء والمنيرة التــي كنــت أتخيلها الفــردوس. وفي لحظات الصفــاء كنت أقول لنفســي إنني على وشــك الجنــون مثلمــا يحدث لــكل العوانس والأرامــل. ففــي بــطء وبطريقــة غيــر محسوســة، ســقطت فــي الهذيــان التصوفــي، وبعــد أربعة أعوام من تلــك الحياة أصبحت أجد صعوبة كبيرة في تمييز الأشياء المزيفة من تلك الحقيقية. وكانت أجراس الكنيســة القريبة تدق لتشــير إلى الوقت كل ربــع ســاعة، وحتى لا أستمع إليها أو لأسمعها بطريقة أقل كنت أضع قطنا في أذني.

وقد اســتحوذت عليّ فكرة أن حشــرات أوجوستو لم تمت حقا، وفــي الليــل كنت أســمع فرقعة أقدامهــا وهى تتجول فــي المنزل، كانــت تســير في كل مــكان، وتتســلق فــوق ورق الحائط وتنتشــر فوق أواني المطبخ، وتتمســح في سجاد الصالون. كنت أمكث فوق الفراش وأنا أحبس أنفاسي في انتظار أن تدخل من أسفل عتبة الباب إلى غرفتي.

وكنت أحاول أن أخفي حالتي هذه عن أوجوستو. ففي الصباح بابتســامتي على شــفتي كنت أعلن له ما أعددته له على الغداء، وكنت أســتمر في ابتســامتي حتــى خروجه من البــاب. كما كنت

أستقبله في عودته بالضحكة المصطنعة نفسها. ومثل زواجي كانت الحرب أيضا في سنتها الخامسة، ففي شهر فبراير سقطت القنابل أيضا فوق تريستى. وفي أثناء الغارة الأخيرة دُمر منزل طفولتي تماما. وكانت الضحية الوحيدة هي الحصان الخاص بأبي، فقد وجدوه في منتصف الحديقة مقطوع القدمين.

وفي تلك الأزمنة لم يكن هناك تليفزيون، وكانت الأنباء تصل بطريقة أبطأ. فقد عرفت أننا فقدنا المنزل في اليوم التالي، عندما تحدث أبي معي تليفونيا. فبمجرد أن قال لي في التليفون «آلو»، كنت قد أدركت على الفور أن شيئا رهيبا حدث، فلقد كان صوته مثل صوت إنسان قد توقف عن الحياة منذ فترة. وشعرت حقا بأنني ضائعة بعد أن فقدت المكان الذي يمكنني العودة إليه. وأخذت أهيم في المنزل كأنني في حالة انجذاب لمدة يومين أو ثلاثة أيام.

ولم يكن أي شيء ينجح في أن يخرجني من البلادة، فقد كنت أرى في تسلسل واحد رتيب وأحادي اللون سنواتي وهى تمر الواحدة تلو الأخرى حتى الموت.

أتعلمين ما الخطأ الذي نقع فيه دائما؟! هو أن نعتقد أن الحياة ثابتة، وأنه إذا اتخذنا في طريقنا رصيفا معينا يجب أن نعبره حتى النهاية. ولكن القدر خياله أوسع منّا بكثير. ففي اللحظة التي تعتقدين فيها أنك في وضع لا مخرج منه، وعندما تصلين إلى القمة النهائية لليأس يتغير كل شيء في قبض الريح، وينقلب كل شيء، وبين اللحظة والأخرى تجدين نفسك تعيشين حياة جديدة. وبعد مرور شهرين من قصف

المنزل، انتهت الحرب. فسافرت على الفور إلى تريستى وكان أبواي قد انتقلا إلى مسكن مؤقت بالاشتراك مع آخرين. كان هناك الكثير جدا من التفاصيل العملية التي يجب الاهتمام بها حتى أنني وجدت نفسي في ظرف أسبوعين قد نسيت كل شيء عن السنوات الماضية في أكويلا.

وبعد ذلك بشهر لحق بي أوجوستو أيضا. كان يجب أن يستعيد مرة أخرى الشركة التي ابتاعها من أبي، والتي كان قد ترك إدارتها خلال فترة الحرب، ولم تكن تعمل بالمرة. ثم كانت هناك مشكلة أن أبويّ من دون منزل وقد أصبحا مسنَّين بالفعل، وبسرعة أذهلتني قرر أوجوستو ترك مدينته وذلك لينتقل إلى تريستي، وابتاع تلك الفيللا على الهضبة وقبل الخريف ذهبنا لنعيش فيها كلنا معا. وبخلاف كل التوقعات، كانت أمي الأولى في الرحيل عن هذا العالم، فقد توفيت بعد فترة قصيرة من نهاية الصيف. وقد تأثرت صلابتها العنيدة بتلك الفترة من الوحدة والخوف. وبوفاتها استيقظت من جديد في داخلي بقوة الرغبة في الإنجاب وعدت لأنام من جديد مع أوجوستو، وعلى الرغم من ذلك، لم يكن يحدث سوى القليل أو لا شيء مطلقا.

كنت أقضي وقتا طويلا وأنا جالسة في الحديقة بصحبة والدي. وكان هو الذي قال لي في ظهيرة أحد الأيام المشمسة: «إن المياه يمكن أن تصنع المعجزات للكبد وللنساء» وبعد ذلك بأسبوعين اصطحبني أوجوستو لآخذ القطار إلى فينتسيا، وهناك، في آخر النهار، كان عليّ أن آخذ قطارا آخر إلى بولونيا،

وبعد أن أغير القطار مرة أخرى، وفي المساء كنت سأصل إلى بوريتا ترمى.

والحقيقة أنني لم أكن أعتقد بشدة في تأثير مياه الينابيع الساخنة، وإذا كنت قررت الرحيل فقد كان دافعي الأول في ذلك رغبتي في الوحدة، كنت أشعر باحتياج إلى أن أمكث في صحبة نفسي بطريقة مختلفة عما كنت في السنوات الماضية، كنت قد تألمت وكان كل جزء بداخلي ميتا تقريبا، كنت مثل مرعى بعد الحريق، كل شيء كان أسود، متفحما.

وبواسطة الأمطار والشمس والهواء فقط تمكن الجزء القليل المتبقي في أسفل أن يجد الطاقة لينمو من جديد رويدا رويدا.

10 ديسمبر

منـذ رحيلـك لم أقرأ الجريدة، فأنت غيـر موجودة الآن حتى تبتاعيهـا، لا يوجـد مـن يحضرهـا لـي، فـي البداية كنت أشـعر ببعض المضايقة بسـبب هـذا النقص، ولكن بعد ذلـك بالتدريج تحولت المضايقة إلى راحة.

وعندئـذ تذكـرت والـد إسـحق سـينجر الـذي كان يقـول إنه مـن بـين كل عادات الإنسـان المعاصر، تعتبر عادة قـراءة الجريدة اليوميـة أسـوأ عادة. ففي الصبـاح في اللحظة التـي تكون فيها النفـس أكثـر انفتاحا تصب قـراءة الجريدة بداخل الإنسـان كل الشـر الذي أنتجه العالم في اليوم السابق، وفي زمنه كان يكفي عدم قراءة الجرائد لينقذ الإنسـان نفسـه، أمـا اليوم أصبح هذا مسـتحيلا، فهناك المذياع والتليفزيـون، يكفي أن يفتحهما المرء لثانية واحدة حتى يصل إليه الشر، ويتخلل بداخله.

وهذا ما حدث هذا الصباح فبينما كنت أرتدي ملابسي سمعت في النشـرة المحلية أنهم أعطوا الإذن لقافلة من اللاجئين لعبور الحدود، فقد كانوا يقفون هناك منذ أربعة أيام، لم يسمحوا لهم بالتقدم ولم يكن في إمكانهم العودة إلى الوراء. وكان يوجد على الحدود المسـنون والمرضى والنساء الوحيدات مع أطفالهن، وقال

المذيع إن القافلة الأولى وصلت بالفعل إلى معسكر الصليب الأحمر وحصلت على احتياجاتها الأولية.

إن وجود حرب بهذا القرب وبهذه الجدية تثير بداخلي اضطرابا شديدا، فمنذ أن اندلعت الحرب وأنا أعيش كأن شوكة مغروسة في قلبي، إنه مجرد تشبيه هزيل ولكن في هزله هذا ينقل بصورة جيدة شعوري، فبعد عام اتحد شعوري بالسخط مع شعوري بالألم، وكان يبدو لي مستحيلا عدم تمكن أحد من التدخل، ووضع حد لهذه المذبحة، ثم اضطررت للاستسلام، فهناك لا توجد آبار بترول بل مجرد جبال صخرية، ومع مرور الوقت تحول شعوري بالسخط إلى غضب واستمر هذا الغضب يعبث بداخلي مثل السوسة العنيدة. إنه لمن المثير للسخرية أنني في سني هذا مازلت أتأثر بالحرب بهذه الطريقة. ففي الواقع يتصارع العشرات والعشرات على الأرض في اليوم الواحد؛ وفي خلال ثمانين عاما كان يجب أن أكون شيئا شبيها بالكاللو على الأرض، مزمنا كالعادة.

فمنذ ولادتي وعلى الحشائش العالية والصفراء للكارسو عبر اللاجئون والجيوش المنتصرة أو المشردة، تعبر أولا قوافل جنود الحرب العظيمة ومعها انفجار القنابل على الهضبة العليا، ثم يصطف العائدون من الحرب في مجموعات روسية ويونانية وتحدث المذابح الفاشية والنازية وكوارث الزلازل، والآن مرة ثانية تعود ضوضاء المدافع على خط الحدود، وخروج هؤلاء الأبرياء هربا من مذبحة البلقان الكبيرة.

منذ بضع سنوات وأنا ذاهبة في القطار من تريستي إلى

فينتسيا سافرت في مقصورة مع وسيطة روحية، كانت سيدة أصغر مني قليلا في السن، ترتدي قبعة مسطحة الشكل، بالطبع لم أكن أعلم أنها وسيطة روحية فقد كشفت هي ذلك وهي تتحدث مع جارتها، كانت تقول لها بينما نعبر الهضبة العليا في كورسيكا: «أتعلمين أنني إذا سرت هنا فوق الهضبة أسمع أصوات الموتى ولا يُمكنني أن أسير خطوتين حتى أجد نفسي وقد صُمّت أذناي، فجميعهم يصرخون بطريقة بشعة، وكلما كان الموتى من الشباب، ازداد صراخهم».

ثم شرحَت لنا أنه حيثما تقع حادثة اعتداء، يبقى في الجو شيء متقلب إلى الأبد، يصبح الهواء متآكلا، ولا يعود للتماسك، وبدلا من المشاعر الوديعة التي عادة ما تكون في الأجواء، يطلق نوع من التلوث يتسبب في ارتكاب جرائم أخرى، إذ إنه حيث جرى سفك الدماء ستسيل دماء أخرى، وفوق تلك الدماء تتراكم دماء جديدة أيضا. وقالت الوسيطة وهى تنهي حديثها: «إن الأرض مثل مصاص الدماء، بمجرد أن تتذوق الدماء تطلب منها المزيد والطازج، وتستمر في الطلب».

ولسنوات عديدة كنت أتساءل إذا ما كان هذا المكان، حيث نسكن، يحمل في داخله لعنة؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال ومازلت أسأله، ولم أنجح حتى الآن في العثور على إجابة. هل تتذكرين كم مرة ذهبنا معا إلى صخرة مونروبينو في أيام رياح البورة؟! كنا نمضي الساعات نراقب المناظر الطبيعية، وكان هذا تقريبا مثل المكوث على متن طائرة والنظر إلى أسفل.

كانت الرؤية في زاوية 360 درجة، وكنا نتسابق على من

سيتعرف قبل الآخر على قمة أحد جبال الدولوميتي، ومن منا سيميز جرادو من فينتسيا الآن، ونظرا إلى أنني لا أستطيع الذهاب بالفعل، أغلق عينيّ حتى أرى المنظر الطبيعي نفسه. وبفضل سحر الذاكرة يظهر كل شيء أمامي وحولي كأنني في روضة للصخرة لا ينقصه شيء ولا حتى صخب الرياح، وروائع الفصول التي اختارها.

أقف هناك أنظر إلى دعائم من الحجر الجيري التي أدّ فيها الزمن والمساحة الهائلة العارية والتي كانت القوات المسلحة تتدرب فيها، والنتوء الجبلي الداكن لإيستريا والغارق في زرقة البحر، كنت أنظر إلى كل شيء حولي وأسأل نفسي للمرة الألف إذا كانت هناك نغمة صارخة، فأين هي؟

أحب هذا المنظر الطبيعي، وربما يمنعني هذا الحب من الإجابة عن سؤالي، فالشيء الوحيد الذي أنا متأكدة منه هو تأثير المظهر الخارجي في طباع من يعيش في تلك المناطق. فإذا كنت دائما حادة وعنيفة وإذا كنت أنت أيضا هكذا فهذا بسبب الكارسو، بسبب انجرافه، بسبب ألوانه، ونتيجة للرياح التي تهب عليه.

إذا كنا قد ولدنا - من يدري - بين هضاب أوبريا مثلا، ربما كنا سنكون أكثر وداعة، ولم يكن للحنق أن يصبح جزءا من طبعنا. هل كان سيكون ذلك أفضل؟ لا أعلم، لا يمكن لأحد أن يتخيل شيئا لم يعشه.

على كل حال، فاليوم لابد أنه كانت هناك لعنة صغيرة، فهذا الصباح، عندما ذهبت إلى المطبخ وجدت أنثى الشحرور وقد فارقت

الحياة بين جروحها. كانت قد أبدت نوعا من اختلال الصحة في اليومـين الأخيرين، وكانت تأكل القليـل، وكثيرا ما كانت تتوقف بـين كل جرعة طعام والأخرى. يبدو أن الوفاة حدثت قبل الفجر بقليل لأنني عندما أخذتها بين يديّ كان رأسها يتدلى من جانب وكان الجانب الآخر كأن الوصلة قد قُطعت، كانت خفيفة، هشـة، بـاردة، ربّـت عليها قليلا قبل أن ألفها في قطعة قماش، كنت أريد أن أعطيها بعض الدفء.

فـي الخارج كان الثلج يتسـاقط بشـدة، أغلقـت على بوك في إحدى الحجرات ثم خرجت. لم تعد لديّ طاقة حتى آخذ الفأس وأحفـر، وهكـذا اختـرت جـزء الحديقـة الأكثـر رقة مـن التربة وصنعت بقدمي حفرة صغيرة، ووضعت بداخلها أنثى الشـحرور وغطيتها، وقبل أن أدخل إلى المنزل تلوت الصلاة التي كنا نرددها عند دفن طيورنا: «يا سيدي اقبل تلك الروح الصغيرة جدا مثلما قبلت كل الأرواح الأخرى».

أتتذكريـن عندمـا كنـتِ طفلـة، كـم مـن الطيـور نجحنا في إسـعافها وأخرى حاولنا إنقاذهـا؟ فبعد كل يوم عاصف كنا نجد طائـرا جريحـا، كانت طيور الحسـون والقرقف، وطيـور الدوري، والشـحرور، حتى إننـا ذات مرة وجدنا طائر الهـزار المغرد، فعلنا كل مـا في استـطاعتنا لإسـعافها جميعا، ولكـن رعايتنا لم تكن غالبـا تنتهـي نهاية سـعيدة فبين يـوم وآخر - من دون أية إشـارة مسبقة - كنا نجدها ميتة.

يا للمأساة التي كانت تحدث إذن في ذلك اليوم، حتى إن كان هذا حدث مرات عديدة بالفعل بيد أنكِ كنت ترتبكين أيضا. وفي أثناء

عمليــة الدفن كنــت تجففين أنفك وعينيك بكــف يدك المفتوحة، ثــم كنتِ تغلقين حجرتك على نفســك «لتصنعي لها مكانا». ففي أحد الأيام كنت قد ســألتني كيف ســيمكننا العثــور على والدتك، فالسماء كبيرة جدا إلى حد أنه يسهل أن نضل الطريق.

قلت لك إن الســماء مثل فندق كبير كل واحد هناك له غرفة، وفــي تلــك الغرفة يعثر كل من تحابوا علــى الأرض على بعضهم البعــض مــرة أخــرى بعد الموت، ويمكثــون هناك إلــى الأبد، ولمدة معينــة أراحك شــرحي هــذا فقط عنــد موت ســمكتك الحمراء الرابعــة أو الخامســة، عــدتِ إلى هذا الموضوع مرة أخرى وســألت «وإذا لــم يعد هناك متســع في الحجــرة؟» أجبتكِ وقلــت: إذا لم يعــد هناك مكان يجب أن نغلــق عينينا ونقول لمدة دقيقة كاملة: «يا غرفة اتسعي، عندئذ ستتسع الغرفة على الفور».

هل مازلت تحتفظين في ذاكرتك بتلك الصور عن طفولتك أم أن قسوتك بعثت بها إلى المنفى؟ لقد تذكرتها أنا اليوم فقط وأنا أدفن أنثى الشحرور «يا غرفة اتسعي»، ياله من سحر جميل! من المؤكــد أنه بين وجود والدتك والأســماك الحمراء كانت حجرتك ســتكون مزدحمة بالفعل مثل الإســتاد. قريبا سأذهب إلى هناك أنا أيضا، هل تريدينني في حجرتك أم أؤجر واحدة بجوارك؟ هل يمكننــي أن أدعو أول إنســان أحببته، هل يمكننــي أخيرا أن أقدم لك جدك الحقيقي؟

فيمَ كنت أفكر، ماذا تخيلت في ذلك المســاء في ســبتمبر وأنا أهبــط مــن القطار في محطــة بوريتا؟ من المؤكد لا شــيء، كانت رائحــة أشــجار الكســتناء منتشــرة بقــوة فــي الجــو، وكان قلقي

الأول هـو أن أجـد البنسـيون الذي حجـزت فيـه غرفة، حينذاك كنـت لا أزال سـاذجة، كنت أجهـل عمل القدر المسـتمر، وإذا كنت أعتقد في شيء فقد كان ذلك في أن الأشياء تحدث فقط بفضل الاسـتخدام الجيد أو السيئ لإرادتي. فـي اللحظة التي وضعت فيها قدميّ وحقيبتي على الرصيف كانت إرادتي متوقفة. لم أكن أريد شـيئا، أو الأفضل أن أقول إنني كنت أريد شـيئا واحدا فقط وهو أن أشعر بالسلام.

قابلت جدك بالفعل في الليلة الأولى فقد كان يأكل في صالة الطعام في بنسـيوني ومعه شـخص آخر، وبخلاف وجود شخص مسن لم يكن هناك نزلاء آخرون، كان يتناقش بطريقة حماسية للغايـة فـي السياسـة، وأعطتنـي نبرة صوتـه على الفور شـعورا بالإزعـاج، فـي أثنـاء العشـاء نظرت إليـه مرتين بانطبـاع جاف وباللمفاجأة عندما اكتشفت في اليوم التالي أنه هو طبيبي.

في الواحات! أخذ يطرح عليّ الأسـئلة عن صحتي لمدة عشرة دقائـق، وفـي اللحظة التي نزعت فيها ملابسـي حدث لي شـيء غاية في الإحراج، أخذت أعرق كأنني أقوم بمجهود كبير.

عندما استمع إلى قلبي قال متعجبا: «يا للهول، يا للرعب!». ثـم انفجـر ضاحكا بطريقـة تثير الغضـب، وبمجـرد أن بدأ في الضغـط علـى مقياس الضغط، ارتفع عامـود الزئبق على الفور إلى أقصى درجته عندئذ سألني: هل تعانين من الضغط العالي؟ كنت غاضبة جدا من نفسي، كنت أحاول أن أردد ما الذي أفزعني هكذا؟ إنه مجرد طبيب يؤدي عمله، ليس شيئا طبيعيا ولا جادا أن أنفعل بهذه الطريقة.

ولكـن، بالرغـم من أنني كررت هذا كثيـرا، لم أنجح في تهدئة نفسي. وعلى الباب، وهو يعطيني روشتة العلاج ضغط على يدي وقال لي: استريحي والتقطي أنفاسك وإلا لن تتمكن المياه أيضا من مساعدتك.

في هذا المساء نفسه بعد العشاء، جاء ليجلس على طاولتي، وفي اليوم التالي كنا نتنزه معا ونحن نتحدث في شوارع البلدة تلك الحيوية المتدفقة التي أغضبتني بشدة في البداية ولكن أصبحت الآن تثير فضولي، ففي كل شيء كان يقوله كان يوجد نوع من الانفعال، كان من المستحيل المكث بجواره من دون الشعور بعدوى الحماس الذي كان ينبعث من كل عبارة يتفوه بها، ومن حرارة جسده.

منذ فترة كنت قد قرأت في إحدى الصحف، أنه تبعا للنظريات الأخيرة، فإن الحب لا ينبع من القلب لكن من الأنف، فعندما يتقابل شخصان ويعجب كل منهما بالآخر يرسل أحدهما للآخر هرمونات صغيرة -لا أتذكر اسمها- وتلك الهرمونات تدخل من الأنف وتصعد حتى المخ وهناك - في بعض الانحناءات السرية - تتفجر عواصف الحب. وعلى كلٍّ فإن المشاعر - كما انتهى المقال - ليست شيئا سوى روائح خفية. يالها من فكرة غبية.

إن من جرب في حياته الحب الحقيقي، ذلك الحب الكبير الذي لا كلمات فيه، يعلم أن تلك التأكيدات ليست سوى الطلقة الخاطئة المعتادة لنفي وجود القلب، من المؤكد أن رائحة الحبيب تتسبب في الكثير من الاضطرابات ولكن لا تتسبب في الحب، يجب أن يكون هناك بالفعل شيء آخر، أثق بأنه مختلف تماما عن مجرد رائحة.

وأنا بجوار أرنستو في تلك الأيام شعرت لأول مرة في حياتي بأن جسدي لا حدود له، وكنت أشعر فيما حولي بنوع من الهالة التي لا تنطفئ، كأن المساحة حولي أصبحت أكثر اتساعا وذلك الاتساع يؤثر في الهواء مع كل حركة، أتعرفين كيف تتصرف النباتات عندما لا تسقينها لبضعة أيام؟ تصبح الأوراق خفيفة، وبدلا من أن ترتفع تجاه الأضواء تسقط إلى أسفل مثل أذني كلب صغير بائس، كانت حياتي في السنوات السابقة تشبه تماما حياة تلك النباتات من دون ماء، فقد كان ندى المساء يعطيني أقل تغذية لأستطيع النجاة ولكن غير ذلك لم أكن أحصل على شيء آخر، كانت لديّ القوة لأقف على قدميّ فقط. ولكن يكفي أن تغسلي النبات مرة واحدة حتى يستعيد نفسه، ويشد أوراقه.

هكذا حدث لي في الأسبوع الأول، فبعد ستة أيام من وصولي، وبالنظر إلى المرآة في الصباح أدركت أنني أصبحت إنسانة أخرى، كان جلدي أكثر نعومة، وعيناي أكثر بريقا، وبينما أرتدي ملابسي كنت أغني، وهو شيء لم أكن قد فعلته منذ كنت طفلة.

وأنت تستمعين إلى القصة من الخارج ربما - وبصورة طبيعية - تعتقدين أنه وراء تلك الغبطة تساؤلات وقلق وعذاب. ففي الحقيقة كنت سيدة متزوجة، كيف كان يمكنني بقلب هادئ أن أقبل صحبة شخص آخر؟ ولكن لم يكن هناك أي تساؤل، أي شك، وذلك ليس لأني كنت متحررة، بل لأن ذلك الذي كنت أعيشه كان يتعلق بالجسد، فقط بالجسد. كنت كمن وجد كهفا دافئا بعد أن تجول طويلا في الطرقات، فلم يكن ليسأل شيئا، فهو يمكث هناك ويتمتع بالدفء. وإلى جانب ذلك فإن التقدير

الذي كنت أشعر به تجاه سحري الأنثوي كان قليلا جدا، وبالتالي لم تكن تنتابني مجرد الفكرة أن هناك رجلا ما يمكن أن يهتم بي مثل هذا الاهتمام.

وفي يوم الأحد الأول وأنا ذاهبة على قدميّ إلى القداس، اقترب منى أرنستو وهو يقود سيارة وسألني وهو يخرج رأسه من النافذة: «إلى أين أنت ذاهبة؟»، وبمجرد أن رددت عليه، فتح باب السيارة وهو يقول: «صدقيني، سيكون الله غاية في السرور إذا ذهبت لتتنزهي نزهة جميلة في الغابات بدلا من الذهاب إلى الكنيسة». وبعد طول تجوال والعديد من المنعطفات وصلنا إلى بداية مدق يظهر بين أشجار الكستناء، ولم أكن أرتدي الحذاء المناسب لأسير في طريق غير متصل، وكنت أتعثر باستمرار. وعندما أخذ أرنستو بيدي، بدا ذلك لي أكثر شيء طبيعي في العالم. وسرنا طويلا في صمت. وكانت رائحة الخريف بالفعل موجودة في الهواء، وكانت التربة رطبة، وكانت هناك أوراق كثيرة صفراء فوق الأشجار، وكان الضوء يتغير بدرجات مختلفة ونحن نعبر خلاله. وفي لحظة معينة، ووسط منطقة أعشاب، قابلنا شجرة كستناء ضخمة. وعندئذ تذكرت شجرة البلوط الخاصة بي فذهبت تجاهها، فربتّ عليها أولا بيدي، ثم وضعت أحد خديّ فوقها. وبعد ذلك على الفور وضع أرنستو رأسه بجوار رأسي: منذ أن تعرفنا لم نقترب قط هكذا بعيوننا.

في اليوم التالي لم أرغب في رؤيته. فقد بدأت الصداقة تتحول إلى شيء آخر، وكنت في حاجة إلى أن أفكر. فلم أعد فتاة صغيرة بل امرأة متزوجة بكل مسؤولياتها، وهو أيضا كان

متزوجا بل كان لديه طفل. ومن هنا حتى الشيخوخة كنت قد تنبأت بحياتي كلها، وظهور شيء لم أكن أتوقعه، وضعني في قلق عظيم. لم أكن أعرف كيف أتصرف. فالشيء الجديد يسبب الفزع لأول وهلة، وللنجاح في الاستمرار يجب تخطي ذلك الشعور بالخطر.

وهكذا في لحظة ما فكرت: «إنه غباء شديد، أكبر غباء في حياتي، يحب أن أنسى كل شيء، وأن أمحو ذلك الشيء القليل الذي حدث». ولكن في اللحظة التالية قلت لنفسي إن الغباء الأكبر هو أن أتنازل عن كل شيء... هو أن أترك كل شيء، إذ إنني ولأول مرة منذ طفولتي أشعر بأنني أعيش من جديد، وأن كل شيء ينبض حولي، وينبض بداخلي، وكان يبدو لي مستحيلا أن أتنازل عن هذه الحالة الجديدة. وإلى جانب ذلك، كان يساورني الشك بالطبع، ذلك الشك الذي على الأقل كان يساور كل النساء، هل يهزأ بي أم أنه يريد أن يتسلى فقط. كل هذه الأفكار كانت تلعب في رأسي وأنا وحيدة في تلك الحجرة الحزينة في البنسيون.

في تلك الليلة لم أستطع النعاس حتى الرابعة، فقد كنت منفعلة جدا. ولكن في الصباح التالي لم أكن أشعر بأنني متعبة بالمرة، وأنا أرتدي ملابسي بدأت في الغناء، في تلك الساعات القليلة ولدت في داخلي رغبة رهيبة في الحياة. وفي اليوم العاشر من إقامتي أرسلت بطاقة إلى أوجوستو كتبت فيها: الهواء رائع، والأكل متوسط، فلنتفاءل، وأرسلت إليه سلامي وقبلاتي الحارة. والليلة التي قبلها كنت قد أمضيتها مع أرنستو.

في تلك الليلة اكتشفت فجأة شيئا ما، وهو أن بين روحنا وجسدنا توجد نوافذ كثيرة صغيرة. من هناك إذا كانت مفتوحة، تعبر المشاعر، وإذا كانت موارية تكاد تنغلق، الحب وحده يمكنه أن يفتحها جميعا على مصراعيها فجأة مثل هبة الرياح السريعة.

في الأسبوع الأخير من إقامتي في بوريتا كنا دائما معا، كنا نقوم بنزهات طويلة، وكنا نتحدث حتى يجف حلقنا. وكم كانت مختلفة أحاديث أرنستو عن أحاديث أوجوستو: كل شيء فيه كان هياما، وحماسا، كان يعرف كيف يدخل في أكثر المواضيع صعوبة ببساطة مطلقة.

كنا كثيرا ما نتحدث عن الله. كان قد اشترك في المقاومة، وكان قد رأى الموت أكثر من مرة. وفي تلك اللحظات كانت تولد بداخله فكرة وجود شيء أعلى، ليس نتيجة الخوف ولكن لاتساع مكان أكبر للوعي.

وكان يقول لي: «لا يمكنني اتباع الطقوس، لا أذهب أبدا إلى مكان عبادة، لا أستطيع أن أؤمن بالقوانين الدينية، أو بقصص اخترعها بشر مثلي». كنا نسرق الكلمات الواحد من الآخر، كنا نفكر في الأشياء ذاتها، وكنا نقولها بالطريقة نفسها، وكان يبدو كأننا يعرف أحدنا الآخر منذ سنوات وليس من مجرد أسبوعين. ولم يعد أمامنا المتسع من الوقت، وفي الليالي الأخيرة لم نكن ننام أكثر من ساعة واحدة، كنا نستغل الحد الأدنى للوقت لاستعادة قوانا. وكان أرنستو مولعا بشدة بموضوع القدر المسبق فكان يقول: «في حياة كل إنسان توجد امرأة واحدة، معها يمكنه الوصول إلى الاتحاد الكامل، وفي

حيـاة كل امـرأة يوجد رجل واحد يمكن معـه أن تصبح كاملة».
ولكن أن يعثر كل طرف على الآخر كان قدر القليل من البشر.. القليـل جـدا. والآخرون جميعـا مجبرون على أن يعيشـوا في حالـة عـدم رضـا، في حالـة حنين أبـدي. كان يقـول في ظلام الغرفة: «كم لقاء يمكن أن يصبح هكذا، واحد من عشـرة آلاف، واحد في المليون، من عشرة ملايين؟».

أجل، واحد من عشـرة ملايين. فكل اللقاءات الأخرى ليسـت سـوى ترتيبات، ملاطفات جسـدية انتقالية، ذات أهداف جسدية أو نتيجـة الطبـاع، أو العـادات الاجتماعية. وبعد تلـك العبارات لم يكن يفعل شـيئا سـوى أن يردد: «كم نحن محظوظون، أليس كذلك؟ من يدري ماذا يوجد وراء هذا، من يدري؟»

وفي يوم الرحيل، ونحن ننتظر القطار في المحطة الصغيرة، احتضنني وهمس في أذني: «ترى في أي حياة تعرفنا من قبل؟». أجبتـه أنـا «فـي حيـوات كثيرة» ثـم بدأت فـي البـكاء . وكنت قد أخفيـت فـي حقيبتـي عنوانه في فيـرارا. لا فائدة مـن أن أصف لكِ أحاسيسي في تلك الساعات الطويلة للرحلة، كانت جميعها متشـنجة: «الواحد مسـلح ضد الآخر» بطريقة حادة. كنت أعلم في تلك السـاعات أنه علي أن أقوم بعملية تغيير في شكلي، كنت أتـردد علـى دورة الميـاه حتـى أفحص تعبيـر وجهي، بريـق عينيّ والابتسـامة يجـب أن يختفيـا، يجـب أن ينطفئـا. لتأكيد جودة الهواء يجب أن تبقى وجنتاي فقط ملونتين.

سواء أبي أو أوجوستو وجدني الاثنان وقد تحسنت بشكل رائع.
أخـذ أبي يردد بلا انقطـاع: «كنت أعلم أن المياه تصنع المعجزات»،

بينما قام أوجوستو- وهو شيء لا يصدقه عقل- بإحاطتي بالمجاملات الصغيرة.

عندما تختبرين أنتِ أيضا الحب للمرة الأولى ستعرفين كم هي متنوعة وغريبة تأثيراته، فمادمت لست عاشقة ومادام قلبك حرا ولا تنظرين إلى أحد، فمن بين كل الرجال الذين يمكنهم أن يحوزوا إعجابك، لا ينظر إليك أحد، ثم في اللحظة التي ترتبطين فيها بشخص واحد، ولا يهمك أي شيء مطلقا من الآخرين، يتبعك الجميع، يقولون لكِ كلمات رقيقة، ويغازلونك. إنه تأثير النوافذ التي حدثتك عنها من قبل، عندما تكون مفتوحة يعطي الجسد ضوءا عظيما للروح، وهكذا يكون تأثير الروح على الجسد، وبنظام المرايا يضيء كل منها الآخر. ففي وقت قصير تكوّن حولي نوع من الهالة الذهبية الدافئة، وكانت هذه الهالة تجذب الرجال مثلما يجذب العسل الدببة. ولم يسلم أوجوستو من هذا التأثير وأنا أيضا. حتى لو بدا لكِ ذلك غريبا- لم أكن أجد صعوبة في أن أكون لطيفة معه.

من المؤكد أنه لو كان أوجوستو مندمجا أكثر في العالم، أو لو كان أكثر خبثا لم يكن ليستغرق وقتا طويلا حتى يُدرك ما حدث، وللمرة الأولى منذ أن تزوجنا وجدت نفسي أشكر حشراته الرهيبة.

هل كنت أفكر في أرنستو؟ بالتأكيد، لم أكن أفعل شيئا أكثر من هذا. ولكن أفكر ليس هو الفعل الدقيق بل أكثر من مجرد تفكير، فقد كنت أوجد لأجله، وكان هو موجودا بداخلي، في كل تصرف، في كل فكرة، كنا شخصا واحدا. في لحظة الفراق كنا

قد اتفقنا أنني أنا الذي سأكتب أولا، لأنه حتى يستطيع هو أن يفعل ذلك كان عليّ أن أجد عنوان صديقة محل ثقة ليرسل لديها الخطابات. خطابي الأول أرسلته إليه في عشية تذكار الموتى، أما الفترة التي أعقبت ذلك كانت أبشع فترة في علاقتنا. فحتى علاقات الحب العظيمة، المطلقة لا تخلو من الشك في فترة الفراق. في الصباح كنت أفتح عينيّ فجأة بينما مازال الظلام في الخارج، وكنت أمكث بلا حراك وفي صمت بالقرب من أوجوستو. كانت اللحظات الوحيدة التي لم يكن عليّ فيها إخفاء مشاعري. كنت أفكر من جديد في تلك الأسابيع الثلاثة. وكنت أسأل نفسي: وإذا لم يكن أرنستو سوى مخادع، شخص يتسلى بالنساء الوحيدات بسبب الملل الذي يشعر به في منطقة العيون؟ وكلما مرت الأيام من دون أن يصل لي خطاب تحول شكي هذا إلى يقين. عندئذ كنت أقول لنفسي: حسنا. حتى إن كانت الأمور هكذا، حتى إن كنت تصرفت كأكثر النساء سذاجة، لم تكن خبرة سلبية أو عديمة الفائدة إذا لم أكن قد تركت نفسي ربما كنت شخت ومت من دون أن أعرف مطلقا ماذا يمكن أن تشعر به المرأة.

أتفهمين؟ فبطريقة ما كنت أحاول أن أمد يدي لأتجنب الصدمة. وقد لاحظ كل من أبي وأوجوستو سوء حالتي النفسية، كنت أثور للاشيء، بمجرد أن يدخل أحدهم إلى غرفة ما، كنت أخرج أنا لأذهب إلى غرفة أخرى، كنت في حاجة لأن أبقى وحيدة، كنت أستعيد باستمرار الأسابيع التي قضيناها معا، وكنت أفحصها بدقة دقيقة بدقيقة حتى أعثر على علامة أو دليل

بينما قام أوجوستو- وهو شيء لا يصدقه عقل- بإحاطتي بالمجاملات الصغيرة.

عندما تختبرين أنتِ أيضا الحب للمرة الأولى ستعرفين كم هي متنوعة وغريبة تأثيراته، فمادمت لست عاشقة ومادام قلبك حرا ولا تنظرين إلى أحد، فمن بين كل الرجال الذين يمكنهم أن يحوزوا إعجابك، لا ينظر إليك أحد، ثم في اللحظة التي ترتبطين فيها بشخص واحد، ولا يهمك أي شيء مطلقا من الآخرين، يتبعك الجميع، يقولون لكِ كلمات رقيقة، ويغازلونك. إنه تأثير النوافذ التي حدثتك عنها من قبل، عندما تكون مفتوحة يعطي الجسد ضوءا عظيما للروح، وهكذا يكون تأثير الروح على الجسد، وينظام المرايا يضيء كل منهما الآخر. ففي وقت قصير تكوّن حولي نوع من الهالة الذهبية الدافئة، وكانت هذه الهالة تجذب الرجال مثلما يجذب العسل الدببة. ولم يسلم أوجوستو من هذا التأثير وأنا أيضا - حتى لو بدا لكِ ذلك غريبا- لم أكن أجد صعوبة في أن أكون لطيفة معه.

من المؤكد أنه لو كان أوجوستو مندمجا أكثر في العالم، أو لو كان أكثر خبثا لم يكن ليستغرق وقتا طويلا حتى يُدرك ما حدث، وللمرة الأولى منذ أن تزوجنا وجدت نفسي أشكر حشراته الرهيبة.

هل كنت أفكر في أرنستو؟ بالتأكيد، لم أكن أفعل شيئا أكثر من هذا. ولكن أفكر ليس هو الفعل الدقيق بل أكثر من مجرد تفكير، فقد كنت أوجد لأجله، وكان هو موجودا بداخلي، في كل تصرف، في كل فكرة، كنا شخصا واحدا. في لحظة الفراق كنا

قد اتفقنا أنني أنا الذي سأكتب أولا، لأنه حتى يستطيع هو أن يفعل ذلك كان عليّ أن أجد عنوان صديقة محل ثقة ليرسل لديها الخطابات. خطابي الأول أرسلته إليه في عشية تذكار الموتى، أما الفترة التي أعقبت ذلك كانت أبشع فترة في علاقتنا. فحتى علاقات الحب العظيمة، المطلقة لا تخلو من الشك في فترة الفراق. في الصباح كنت أفتح عينيّ فجأة بينما مازال الظلام في الخارج، وكنت أمكث بلا حراك وفي صمت بالقرب من أوجوستو. كانت اللحظات الوحيدة التي لم يكن عليّ فيها إخفاء مشاعري. كنت أفكر من جديد في تلك الأسابيع الثلاثة. وكنت أسأل نفسي: وإذا لم يكن أرنستو سوى مخادع، شخص يتسلى بالنساء الوحيدات بسبب الملل الذي يشعر به في منطقة العيون؟ وكلما مرت الأيام من دون أن يصل لي خطاب تحول شكي هذا إلى يقين. عندئذ كنت أقول لنفسي: حسنا. حتى إن كانت الأمور هكذا، حتى إن كنت تصرفت كأكثر النساء سذاجة، لم تكن خبرة سلبية أو عديمة الفائدة إذا لم أكن قد تركت نفسي ربما كنت شخت ومت من دون أن أعرف مطلقا ماذا يمكن أن تشعر به المرأة.

اتفهمين؟ فبطريقة ما كنت أحاول أن أمد يدي لأتجنب الصدمة. وقد لاحظ كل من أبي وأوجوستو سوء حالتي النفسية، كنت أثور للاشيء، بمجرد أن يدخل أحدهم إلى غرفة ما، كنت أخرج أنا لأذهب إلى غرفة أخرى، كنت في حاجة لأن أبقى وحيدة، كنت أستعيد باستمرار الأسابيع التي قضيناها معا، وكنت أفحصها بدقة دقيقة بدقيقة حتى أعثر على علامة أو دليل

يقودني بصورة نهائية في اتجاه معين. كم استمر هذا التعذيب، لمدة شهر ونصف الشهر، تقريبا لمدة شهرين. وفي الأسبوع الذي يسبق عيد الميلاد وصل أخيرا. في منزل صديقتي التي كانت تقوم بدور الواسطة. خطاب، من خمس صفحات مكتوب بخط كبير ومتسع. تحسن مزاجي فجأة، وبين الكتابة وانتظار الرد طار الشتاء سريعا والربيع أيضا. وكان التفكير المستمر في أرنستو قد غيّر من إدراكي للوقت، كانت كل طاقتي مركزة في مستقبل غير محدد، في اللحظة التي سأتمكن فيها من رؤيته مرة أخرى. وكان العمق الموجود في خطابه قد جعلني أتأكد الآن من المشاعر التي تربطنا. فقد كان حبا عظيما، عظيما جدا ومثل كل حب عظيم، كان أيضا بعيدا كل البعد عما يمكن حدوثه من مواقف إنسانية. ربما يبدو لك أن فترة البعاد الطويلة لم تكن تثير فينا الآلام العظيمة، وربما لا يكون حقيقيا إذا قلت إننا لم نكن نعاني مطلقا. فسواء أنا أو أرنستو كنا نعاني هذا البعد الإجباري، ولكنها كانت معاناة مختلطة بمشاعر أخرى، وخلف الانفعال بالانتظار كان الألم يأتي في مرحلة ثانية. فقد كنا شخصين ناضجين ومتزوجين، وكنا نعرف أن الأمور لا يمكن أن تسير بغير هذه الطريقة. ربما لو كان كل هذا حدث في أيامنا هذه، لكنت طلبت الانفصال من أوجوستو بعد أقل من شهر، ولكان أرنستو طلبه من زوجته، ولكنا سكنا بالفعل في منزل واحد قبل عيد الميلاد. هل كان ذلك سيكون أفضل؟ لا أعلم.

في الواقع لا يمكن أن أنزع من رأسي فكرة أن سهولة العلاقات تتسبب في تفاهة الحب وتحوّل كثافة الانفعال إلى مجرد إعجاب

عابــر. أتعرفين ماذا يحدث عندما تخلطين الخميرة في العجين بطريقة خاطئة في الحلوى؟ بدلا من أن ترتفع الحلوى بطريقة متناسقة ترتفع فقط من ناحية واحدة، بل كلما ارتفعت تنفجر، ويتكسـر العجين ويسـقط من القالب كالحمم البركانية. وهكذا أيضا وحدة المشـاعر تفيض. في ذلك الوقت أن يكون لك حبيب، وأن تنجحي في رؤيته، لم يكن بالشيء الهين.

من المؤكد أنه بالنسـبة إلى أرنسـتو كان الوضع أسـهل، فنظرا إلـى أنــه كان طبيبـا كان يمكنــه دائمــا أن يختــرع وجــود مؤتمر، مسـابقة، أو أية حالة عاجلة، ولكن بالنسـبة إلـيّ فبجانب كوني ربـة بيـت لم تكن لديّ أية أنشـطة أخرى فكان الأمر مسـتحيلا. وكان يجب عليّ أن أخترع التزاما ما، شيئا ما يسمح لي بالتغيب لبضـع سـاعات أو لبضعـة أيام مـن دون أن أثير أيـة ريبة. وهكذا وقبل عيد الفصح كنت قد سجلت نفسي في جمعية متخصصي اللاتينية الهواة.

كنـا نجتمـع مرة فـي الأسـبوع، وكنا نقـوم برحـلات ثقافية. ونظرا إلى أن أوجوسـتو كان يعلم عشـقي للغات الكلاسـيكية لم يشـك في أي شـيء، ولم يجد أي شـيء ليقوله، بل كان مسـرورا لأنني استعدت اهتماماتي السابقة. في ذلك العام وصل الصيف فـي غمضة عـين. وفي نهاية شـهر يونيو، مثلما يحـدث كل عام، رحل أرنسـتو للموسـم في العيون المائية، وذهبت أنا للشاطئ مع والدي وزوجي. وفي هذا الشهر نجحت في إقناع أوجوستو بأنني لم أتوقف عن تمني طفل. وفي الحادي والثلاثين من أغسـطس في الصباح الباكر، وبالحقيبة نفسـها وبالثوب نفسـه الذي كنت

أرتديه في العام السابق، اصطحبني لأخذ القطار المتجه إلى بورتيا. وخلال الرحلة، وبسبب التوتر لم أنجح في أن أمكث ساكنة ولو للحظة، كنت أرى من النافذة المناظر الطبيعية نفسها التي رأيتها في العام السابق بيد أنها كانت تبدو لي مختلفة.

وتوقفت في منطقة الينابيع لمدة ثلاثة أسابيع، وفي تلك الأسابيع الثلاثة عشت أعمق لحظات حياتي. وفي أحد الأيام بينما كان أرنستو في عمله، وفي أثناء نزهتي في الحديقة، كنت أفكر أن أجمل شيء في تلك اللحظة هو أن أموت. ربما يبدو هذا غريبا ولكن أقصى حالات الفرح مثل أقصى حالات التعاسة تجلب معها دائما هذه الأمنية العكسية. كان لديّ الشعور بأنني أسير منذ فترة طويلة، بأنني سرت لمدة سنوات وسنوات في شوارع مترية، وفي الغابة، ولأستمر كنت قد فتحت لنفسي نفقا صغيرا بالفأس، وكنت أتقدم، ولم أكن أرى شيئا مما يحيط بي، لم أرَ سوى الموجود أمام قدميّ. ولم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهبة، فكما كان يمكن أن تكون أمامي هاوية، أو فوهة، كان يمكن أن تكون هناك مدينة أو صحراء، ثم انفتحت الغابة فجأة، ومن دون أن أدرك وجدت نفسي أصعد إلى أعلى وفجأة وجدت نفسي على قمة جبل، وكانت الشمس قد أشرقت منذ قليل ووجدت أمامي جبالا أخرى ذات أشكال مختلفة تتدرج تجاه الأفق، كان كل شيء أزرق سماويا، وكان هناك نسيم خفيف يلمس القمة، ورأسي معها، رأسي والأفكار التي بداخله. ومن حين إلى آخر كان يصعد من أسفل ضجيج، مثل نباح كلب أو صوت أجراس كنيسة. كل شيء كان في وقت

مـا خفيفا ومكثفا، تشـابك غريـب. وأصبح كل شـيء بداخلي وحولي واضحا، لم يعد هناك شـيء يسود، لم يعد هناك شيء يسـبب ظلالا، ولم تعد لدي الرغبة في الهبوط أو في الذهاب إلـى الغابـة، كنت أريـد أن أغرق بداخـل ذلك اللون السـماوي وأمكث هناك إلى الأبد، وأن أترك الحياة في أسـمى اللحظات. واحتفظت بهذه الفكرة حتى المسـاء، للحظة التي سـأرى فيها أرنستو. ولكنني لم أجد الشجاعة لأقولها له في أثناء العشاء، كنت أخشى أن ينفجر ضاحكا. ولكن فقط - في الليل - عندما لحق بي في حجرتي، عندما أتى واحتضنني، اقتربت بفمي من أذنه لأتحدث معه، كنت أريد أن أقول له: «أريد أن أموت». ولكن أتعرفين ماذا قلت؟ قلت: «أريد طفلا».

عندما تركت بوريتا، كنت أعلم أنني حبلى. وأعتقد أن أرنستو أيضـا كان يعلـم ذلـك، ففـي الأيـام الأخيـرة كان مرتبـكا جـدا، مضطربـا، وكان يمكـث صامتـا فـي الغالـب. أنا لم أكـن مرتبكة مطلقا. كان جسـدي قد بـدأ يتغير من الصبـاح التالي للحمل، فلقد أصبح الثدي أكثر انتفاخا فجأة، أكثر تماسكا، وأصبح جلد الوجـه أكثر لمعانا. إنه حقا شـيء لا يصدق، ذلك الوقت الضئيل الذي يستغرقه الجسد ليتأقلم مع الحالة الجديدة. ولهذا يمكن أن أقـول لك إنني حتى وإن لم أكن قـد قمت بالتحاليل اللازمة، وبالرغـم من أن بطني كان مسـطحا، كنـت أعرف تمام المعرفة ما حدث. ففجأة شـعرت بأن أشـعة عظيمة تخترقني، كان جسـدي قد بدأ يتغير، بدأ في التمدد، بدأ يصبح قويا. وقبل ذلك الحين لم أكن قد اختبرت شيئا مثل هذا.

هاجمتني الأفكار القاسية فقط عندما بقيت وحدي في القطار. ففي الفترة التي كنت فيها بالقرب من أرنستو لم يساورني أي شك في أنني أرغب في الاحتفاظ بالطفل، كان كل شيء بعيدا، أوجوستو، حياتي في ترسيتى، كلام الناس. ولكن في تلك اللحظة كان كل هذا العالم يقترب، وكانت السرعة التي بها يسير الحمل تدفعني إلى أن أتخذ القرار في أسرع وقت، ومجرد اتخاذ القرار يعني الاحتفاظ به إلى الأبد. وأدركت على الفور، بطريقة غريبة، أن الإجهاض سيكون أصعب جدا من الاحتفاظ بالطفل. فلن يخفى على أوجوستو قيامي بالإجهاض وكيف سيمكنني أن أبرر ذلك أمامه بعد كل تلك الأعوام التي أصررت فيها على رغبتي في الإنجاب؟ ثم إنني لم أكن أرغب في الإجهاض، فذلك المخلوق الذي ينمو بداخلي لم يكن خطأ، أو شيئا يجب التخلص منه في أقرب فرصة. فلقد كان تحقيقا لأمنية، ربما أكبر وأقوى أمنية في حياتي.

عندما تحب امرأة رجلا - عندما تحبه بكل جسدها وروحها- فإن أكثر الأشياء طبيعية هو أن تتمنى طفلا. والأمر لا يتعلق بأمنية ذكية، أو باختيار يرتكز على معايير عقلانية. فقبل أن أعرف أرنستو كنت أعتقد أنني أريد طفلا، وكنت أعلم تماما لماذا كنت أريده، وماذا كانت ستكون فوائد وجوده وخسائره . أي أنه كان اختيارا عقلانيا، كنت أريد طفلا لأنني كنت قد وصلت لسن معينة، وكنت وحيدة جدا، لأنني كنت سيدة، وإذا كانت السيدة لا تفعل شيئا فعلى الأقل يمكنها أن تنجب طفلا. أتفهمين؟ فلاقتناء سيارة كنت سأستخدم المعايير نفسها.

ولكن عندما قلت لأرنستو في تلك الليلة: «أريد طفلا»، كان شيئا مختلفا تماما، التفكير السليم كان ضد هذه الرغبة، وكان هذا القرار أقوى من أي تفكير سليم. ثم إنه - في الحقيقة - لم يكن قرارا، كان جنونا، وكانت لهفة التملك الأبدي. كنت أريد أرنستو بداخلي، معي، بجواري إلى الأبد. والآن، وعندما أقرأ كيف تصرفت، ربما ارتعدت من البشاعة.

ستسألين نفسك كيف أنكِ لم تدركي من قبل أنني أخفي جوانب منحطة هكذا، وحقيرة بهذه الطريقة. عندما وصلت إلى محطة تريستى، قمت بالشيء الوحيد الذي كان يمكنني عمله، هبطت من القطار مثل زوجة حنونة مولعة بزوجها. ودهش أوجوستو على الفور من تغيري، ولكن بدلا من أن يتساءل، ترك نفسه ليندمج. وبعد مرور شهر كان واضحا جدا أن هذا الطفل طفله. وفي اليوم الذي فيه أعلنت له نتائج التحاليل، ترك مكتبه في منتصف النهار وقضى اليوم كله معي ليخطط التغييرات اللازمة في المنزل استعدادا لوصول الطفل. وعندما اقتربت برأسي من رأس أبي لأعلن له الخبر، صارخة، أخذ يديّ بين يديه الجافة ومكث هكذا، ثابتا لبرهة، بينما أصبحت عيناه ممتلئة بالدموع حمراء اللون. فقد أبعده الصمم بالفعل منذ فترة عن جزء كبير من الحياة، وكانت أحاديثه تنبثق مرتجفة بين كل عبارة وأخرى، كانت توجد فراغات مفاجئة، فواصل وأجزاء من ذكريات لا دخل لها مطلقا.

لا أعلم لماذا بدلا من أتأثر أمام دموعه تلك انتابني شعور شديد بالضيق. كنت أرى بداخلها رمزا لا أكثر. على كل حال،

لم ينجح في رؤية حفيدته. فقد توفي في أثناء نومه من دون أن يعاني عندما كنت في شهري السابع من الحمل. وعندما رأيته موضوعا في صندوقه صدمني كيف أصبح نحيلا ومتهالكا. وعلى وجهه كان يوجد التعبير المعتاد نفسه، المتباعد والفاتر. وطبيعي، بعد أن حصلت على نتيجة التحليل، كتبت أيضا لأرنستو، ووصلني الرد في أقل من عشرة أيام. وانتظرت بضع ساعات قبل أن أفتح الخطاب، كنت منفعلة جدا، كنت أخشى أن يكون بداخله شيء مقيت. وقررت قراءة محتوى الخطاب في آخر الظهيرة، ولأستطيع قراءته بحرية أغلقت على نفسي بداخل مرحاض أحد البارات. كانت كلماته هادئة وعاقلة، كان يقول: «لا أعلم إذا كان هذا هو أفضل شيء يمكن عمله ولكن إذا كنت أنت قررتِ هذا، فأنا أحترم قرارك».

ومنذ ذلك اليوم، وبعد أن تخطينا كل العوائق، بدأ انتظاري الهادئ كأم. هل كنت أشعر بأنني وحش؟ هل كنت ذلك؟ لا أعلم. في أثناء فترة الحمل ولسنوات عديدة تلت ذلك لم أشعر مطلقا بالشك أو بالندم. كيف كان يمكنني التظاهر بأنني أحب رجلا بينما في أحشائي كنت أحمل طفلا لرجل آخر أحبه فعلا؟ ولكن لتعلمي أنه في الحقيقة ليست الأشياء بسيطة بهذه الطريقة، فهي ليست على الإطلاق سوداء أو بيضاء، فكل لون يحمل في داخلي درجات عديدة متنوعة. ولم أكن أتعب مطلقا في أن أكون لطيفة وحبيبة لأوجوستو، لأنني كنت بالفعل أحبه كثيرا. كنت أحبه بطريقة مختلفة عن التي كنت أحب بها أرنستو، فلم أكن أحبه مثلما تحب امرأة رجلا، ولكن كما تحب أخت أخاها الأكبر

الممل قليلا. إذا كان هو إنسانا شريرا لاختلف كل شيء تماما، فلم أكن سأحلم مطلقا أن أنجب طفلا وأعيش بجواره، ولكنه كان فقط رتيبا وتقليديا بشكل قاتل، وفيما عدا ذلك، كان في أعماقه لطيفا وطيبا. كان سعيدا بأن له هذا الطفل، وأنا كنت سعيدة بإعطائي إياه.

ولأي سببٍ كان عليّ أن أفشي له السر؟ فإذا كنت سأفعل ذلك كنت سأجلب التعاسة لثلاثة أشخاص. هكذا فكرت في ذلك الوقت. ولكن الآن، مع وجود حرية الحركة، وحرية الاختيار، يمكن أن يبدو ذلك الذي فعلته بشعا بالفعل، أما حينذاك. عندما وجدت نفسي أعيش في تلك الظروف. كان شيئا شائعا. لا أقصد أن هذا كان يحدث في كل الزيجات، ولكن من المؤكد أنه كان شيئا متكررا أن تلد امرأة طفلا من رجل مختلف في محيط الزواج. وماذا كان يحدث؟ إن الذي حدث لي هو لا شيء، مطلقا. كان الطفل يولد، ويكبر مثله مثل إخوته الآخرين، وكان يكبر من دون أن تساوره ذرة شك واحدة. فقد كان معنى العائلة في تلك الأوقات صلبا جدا، ولتحطيمه كان يجب أن يكون هناك شيء أكبر بكثير من وجود طفل مختلف. وهكذا سارت الأمور مع والدتك. وُلدت وأصبحت على الفور ابنتي أنا وأوجوستو.

ولكن الشيء الأهم بالنسبة إليّ هو أن إيلاريا كانت ثمرة الحب وليست ثمرة المصادفة، أو التقاليد، أو الملل، كنت أعتقد أن هذا يمكن أن يبعد أي نوع آخر من المشاكل. ولكن كم كنت مخطئة!

على كل حال، سارت الأمور في السنوات الأولى بطريقة طبيعية، من دون أي قلاقل. كنت أعيش لأجلها، كنت. أو كنت

أعتقد أنني. أما حنونة جدا ويقظة. وبالفعل منذ الصيف الأول كنت قد اعتدت أن أقضي أكثر الشهور الحارة مع الطفلة على الشاطئ الأدرياتي.. وكنا قد استأجرنا منزلا، وكان أوجوستو يأتي لقضاء يومي السبت والأحد معنا كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع.

على ذلك الشاطئ رأى أرنستو ابنته للمرة الأولى. كان بالطبع يتظاهر بأنه شخص غريب تماما، وفي أثناء نزهته كان يسير بالمصادفة بالقرب منا، وكان يأخذ شمسية على بعد خطوات قريبة، ومن هناك. عندما لم يكن أوجوستو موجودا- وهو يواري انتباهه خلف كتاب أو جريدة - كان يراقبنا لساعات. ثم في المساء كان يكتب لي خطابات طويلة مسجلا فيها كل ما خطر برأسه، مشاعره نحونا، وذلك الذي رآه. في ذلك الوقت كانت زوجته قد رزقت أيضا بطفل آخر، وكان هو قد ترك عمله الموسمي في منطقة الينابيع، وفتح عيادة خاصة في مدينة فيرارا،. وفي السنوات الثلاث الأولى لإيلاريا، فيما عدا تلك اللقاءات التي كانت تبدو كأنها مصادفة، لم نكن نلتقي مطلقا. كنت أنا مشغولة جدا مع الطفلة، فكل صباح كنت أستيقظ بفرحة معرفتي أنها موجودة، وحتى إن أردت لم أكن لأستطع أن أكرس نفسي لأي شيء آخر.

وقبل أن يترك أحدنا الآخر بقليل، وفي أثناء إقامتنا الأخيرة في منطقة الينابيع كنت أنا وأرنستو قد عقدنا اتفاقا. قال لي: «كل مساء، في الساعة الحادية عشرة تماما، في أي مكان سأوجد فيه، أو في أي وضع، سأخرج إلى الخلاء وسأبحث في السماء عن

نجمة الدب الأكبر، وأنت تفعلين الشـــيء نفســه ، وهكذا ستلتقي أفكارنا حتى إذا أصبحنا بعيدين جدا، وحتى إذا لم نكن نتلاقى منــذ فتــرة، وكان كل منــا يجهــل كل شــيء عــن الآخــر، فســوف نتلاقى هناك في أعلى وسنصبح قريبين» . ثم خرجنا إلى تراس البنســيون ومن هناك وهو يشير بإصبع إلى النجوم، أراني نجمة الدب الأكبر والتي تقع بين نجمة وحيد القرن والأرنب.

12 ديسمبر

هذه الليلة استيقظت فجأة على ضوضاء، واستغرقت بعض الوقت لأدرك أنه صوت التليفون، عندما قمت كان قد رن بالفعل عدة مرات، وتوقف بمجرد أن وصلت إليه. ومع ذلك رفعت السماعة، وبصوت ناعس قلت «آلو» مرتين أو ثلاث مرات. ولكن بدلا من أن أعود إلى الفراش جلست على المقعد هناك بجواره. هل كنتِ أنتِ؟ من يمكن أن يكون إذن؟ هذا الصوت في الهدوء الليلي في المنزل سبب لي اضطرابا وتذكرت قصة كانت قد روتها لي إحدى صديقاتي منذ عدة أعوام. كان زوجها في المستشفى منذ فترة. وبسبب قسوة مواعيد الزيارة لم تستطع أن تكون بجواره في اليوم الذي توفي فيه.

وكان الألم يمزقها لفقده بهذه الطريقة. لم تستطع النوم في الليلة الأولى، وكانت تجلس هناك في الظلام عندما رن التليفون فجأة. أصابتها الدهشة، أمن الممكن أن يتصل أحد ليقدم التعازي في تلك الساعة؟ وبينما قربت يدها من السماعة، بغتت من أمر غريب، فمن جهاز التليفون كانت ترتفع هالة ضوئية مرتعشة. وبمجرد أن أجابت تحولت دهشتها إلى فزع. فقد كان هناك صوت بعيد جدا من الجانب الآخر من المكالمة، كان يتحدث

بصعوبة: «مارتا» كان يقولها بين الهزيز والضوضاء: «أريد أن أودعك قبل أن أذهب...»، كان صوت زوجها. وبمجرد أن انتهت تلك العبارة كان هناك لمدة ثانية ضوضاء أحدثتها رياح قوية، وبعد ذلك على الفور انقطع الخط وساد الصمت.

في تلك المرة شعرت بشفقة تجاه صديقتي بسبب حالة الاضطراب العميقة التي تعيشها، فكرة أن الأموات لكي يتصلوا بنا سيختارون أحدث وسائل الاتصال كانت تبدو لي شديدة الغرابة. على كل حال، يبدو أن تلك القصة قد تركت أثرها في مشاعري، ففي أقصى الأعماق، في أكثر جزء سذاجة وسحرا بداخلي، ربما كنت أتمنى أنا أيضا آجلا أو عاجلا أن يتصل بي أحدهم في قلب الليل ليحييني من السماوات. لقد دفنت ابنتي، وزوجي وأكثر إنسان أحببته في العالم. ماتوا جميعا، لم يعودوا موجودين.

مازلت أتصرف كأحد الذين نجوا من الغرق. فقد أنقذني التيار وألقى بي فوق جزيرة، ولم أعد أعرف شيئا عن رفاقي، لقد ابتعدوا عن نظري في اللحظة نفسها التي قُلب فيها القارب، يمكن أن يكونوا قد غرقوا. وهذا ما حدث بالتأكيد. ولكن ربما أيضا كان ما حدث هو العكس. على الرغم من مرور شهور وسنوات، فإنني مازلت أبحث في الجزر القريبة في انتظار نفحة، علامة دخان، أي شيء يؤكد شكوكي بأنهم مازالوا يعيشون معي تحت السماء نفسها.

في الليلة التي مات فيها أرنستو استيقظت فجأة بسبب صوت قوي. أشعل أوجوستو الضوء وتساءل: «ما هذا؟»، وفي الغرفة

لـم يكـن هنـاك أحد، ولا شـيء كان فـي غير موضعـه. فقط في الصباح عندما فتحت باب الدولاب أدركت أنه في الداخل سقطت كل الأرفـف، وأن الجـوارب والملابـس الداخلية سـقطت جميعها وتكومـت بعضها فـوق بعض. الآن يمكنني أن أقـول «الليلة التي مات فيها أرنِسـتو». لأنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف. كنت قد تسلمت رسالة منه للتو، ولم يكن في استطاعتي أن أتخيل حتى مـن بعيد جدا ما حدث. فكرت فقط في أن الرطوبة تسـببت في تآكل دعائم الأرفف وأنها بسبب الثقل الزائد سقطت.

كانت إيلاريا تبلغ من العمر أربع سـنوات وكانت قد بدأت منذ فتـرة صغيـرة الذهاب إلـى الحضانـة، وكانت حياتـي معها ومع أوجوسـتو أصبحت منظمـة في هدوء يومي. فـي تلك الظهيرة، وبعـد اجتمـاع هـواة اللغـات اللاتينيـة، ذهبـت إلى البـار لأكتب لأرنستو.

فبعد شـهرين سـيكون هناك تجمع في مونتاڤـا، وكانت تلك هـي الفرصة التي ننتظرها منذ وقـت طويل لنلتقي من جديد. وقبـل أن أعـود إلى المنزل ألقيـت بالخطاب في صنـدوق البريد، وبدءا من الأسـبوع التالي بدأت أنتظـر الرد. لم أتلق خطابه في الأسـبوع التالي ولا في الأسـابيع التالية. ولم يكن قد حدث قط أن انتظرت كل تلك المدة. في البداية فكرت ربما السبب مشكلات فـي خدمات البريد، ثم فكـرت بعد ذلك أنه ربما كان مريضا ولم يستطع الذهاب إلى المكتب ليستقبل البريد.

وبعد ذلك بشـهر كتبت له خطابـا قصيرا ولكن أيضا لم أتلق أي رد. ومع مرور الأيام بدأت أشعر كأنني مثل منزل تخلل أساسه

مجرى مائي. في البداية كان مجرى خفيفا، بسيطا، كان يلمس بالكاد البناء الأسمنتي، ولكن بعد ذلك - ومع مرور الوقت - ازداد حجمه، وأصبح أكثر عنفا، وتحت تأثير قوته تحول الأسمنت إلى تراب، حتى إن ظل المنزل واقفا على قدميه، حتى إن بدا كل شيء طبيعيا في الظاهر، كنت أعلم أن ذلك لم يكن حقيقة، كانت مجرد صدمة - وربما أقل - تكفي لتسقط الواجهة وبقية المنزل، ليتكوم دفعة واحدة كما يحدث لقصر ورقي.

عندما ذهبت إلى المؤتمر كنت بالكاد ظلا لنفسي. فبعد أن أثبت حضوري في مانتوفا ذهبت على الفور إلى فيرارا، وهناك حاولت أن أفهم ماذا حدث. لم يكن هناك من يجيب في العيادة، وعندما كنت أنظر من الطريق كنت أرى النوافذ دائما مغلقة. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المكتبة وطلبت الاطلاع على جرائد الأشهر السابقة. وهناك في خبر موجز وجدت كل شيء مكتوبا. ففي أثناء عودته ليلا من زيارة لأحد المرضى فقد السيطرة على السيارة وانتهى الأمر بأن اصطدم بشجرة دلب ضخمة، وحدثت الوفاة تقريبا على الفور.

وكان اليوم والساعة يتفقان تماما مع وقت سقوط دولابي.

في إحدى المرات في مجلة من تلك المجلات الفاشلة والتي تحضرها لي من حين إلى آخر مدام رازمان قرأت في باب النجوم أن كوكب مارس يرأس البرج الثامن للميتات العنيفة. وتبعا لما كان يقوله ذلك المقال، فإن من يولد بترتيب النجوم هذا لا يُقدّر له أن يموت سعيدا في فراشه. من يدري إذا كان في سماء أرنستو وإيلاريا كان يبرق ذلك الاقتران اليساري، فبعد أكثر من عشرين

عاما من رحيل الأب رحلت ابنته بالطريقة نفسها إذ اصطدمت سيارتها بشجرة.

بعد وفاة أرنستو انزلقت في انهيار نفسي عميق. وفجأة أدركت أن الضوء الذي برقت به في السنوات الأخيرة لم يكن آتيا من داخلي، كان مجرد انعكاس. وأن السعادة وحب الحياة اللذين اختبرتهما في الحقيقة لم ينتميا إليّ في واقع الحال. كنت أعمل فقط كمرآة. فقد كان أرنستو يرسل ضوءا وكنت أنا أعكسه. وبموته عاد كل شيء مظلما. ولم تعد رؤية إيلاريا تجلب لي السعادة بل الغضب، وكنت مهزوزة جدا إلى الحد الذي كنت أشك إذا كانت فعلا ابنة أرنستو.

لم يفتها ذلك التغيير، فبجهاز استقبال كطفلة حساسة أدركت نفوري هذا، وأصبحت ذات نزوات، وأصبحت هي النبتة الشابة والمملوءة بالحيوية، بينما أنا الشجرة المسنة المعدة للقطع. كانت تشم شعوري بالذنب مثل كلب الصيد، وتستغل ذلك لتصل إلى أعلى. وأصبح المنزل جحيما صغيرا من النزاع والصراخ.

ولينزع عني هذا الثقل، عيّن أوجوستو سيدة لترعى الطفلة. ولفترة قصيرة حاول أن يجذب انتباهها للحشرات ولكن بعد ثلاث أو أربع محاولات. ونظرا إلى أنها في كل مرة كانت تصرخ قائلة: «إنه لشيء مقزز». تنازل عن محاولاته يائسا.

وفجأة ظهرت عليه علامات التقدم في السن، وكان يبدو جد الطفلة وليس أباها، وكان لطيفا معها ولكنه بعيد. وعندما كنت أمر أمام المرآة كنت أرى أنني أيضا تقدمت في السن، ومن

ملامحي كانت تظهر قسوة لم تكن موجودة مطلقا من قبل. وكان إهمالي لنفسي هو الطريقة التي كنت أظهر بها الاحتقار الذي كنت أشعر به تجاه نفسي. وأصبح لديّ الكثير من وقت الفراغ بسبب وجود المدرسة ومدبرة المنزل. كان القلق يدفعني إلى أن أقضي أغلبه في حركة، فكنت آخذ السيارة وأتجول ذهابا وعودة في الكارسو، كنت أقود السيارة بنوع من النشوة. واستعدت بعض قراءاتي الدينية التي كنت أقوم بها أثناء مكوثي في أكويلا. وبين تلك الصفحات كنت أبحث بغضب عن إجابة. وفي أثناء سيري كنت أردد وأنا أتحدث مع نفسي عبارة القديس أوغسطينوس بسبب وفاة والدته: «يجب ألا نحزن لأننا فقدناها، ولكن لنحمد الله أنها كانت لنا».

جعلتني إحدى صديقاتي أقابل أب اعترافها مرتين أو ثلاث مرات، وكنت أخرج من تلك اللقاءات أكثر حزنا. فقد كانت كلماته شديدة العذوبة، تشيد بقوة الإيمان، كأن الإيمان عبارة عن نوع طعام معروض للبيع في أول متجر في الطريق. ولم أنجح في أن أجد لنفسي سببا لفقد أرنستو، وكان اكتشافي أنني لم أكن أمتلك ضوءا خاصا بي جعل أيضا محاولاتي للعثور على إجابة أكثر صعوبة. أتعرفين، عندما تقابلت معه، عندما وُلد الحب بيننا، اقتنعت فجأة بأن حياتي أصبحت ذات معنى، وكنت سعيدة بوجودي، وسعيدة بكل ما هو موجود معي، كنت أشعر بأنني وصلت إلى أعلى مراحل مسيرتي، إلى المرحلة الأكثر استقرارا، وكنت واثقة بأنه لن يتمكن أي شيء أو أي إنسان من أن يحركني من هناك. وبداخلي كانت هناك الثقة المغرورة نوعا

ما التي للأشخاص الذين فهموا كل شيء. ولسنوات عديدة كنت واثقة بأنني سرت هذا الطريق على قدميّ، ولكنني لم أقم ولا بخطوة واحدة وحدي. وحتى إن لم أكن قد أدركت ذلك، فقد كنت أمتطي حصانا، فقد كان هو الذي يقود المسيرة، ولست أنا.

ومنذ اللحظة التي اختفى فيها الحصان، أدركت طبيعة قدميّ، وكم هما ضعيفتان، كنت أريد أن أسير ولكن كان كعباي لا يقويان على حملي، وكانت الخطوات التي أخطوها هي خطوات معتلة لطفل صغير جدا أو لشيخ هرم. وللحظة ما فكرت في أن أستند على عصا ما، وكان يمكن أن تكون العصا هي الدين أو العمل. وألحت عليَّ هذه الفكرة فترة قصيرة جدا. أدركت على الفور أنه يمكن أن يكون هناك خطأ ما. ولكن في سن الأربعين لا توجد أي مساحة للأخطاء. فإذا وجد الإنسان نفسه فجأة عاريا، يجب أن تكون لديه الشجاعة لينظر في المرآة ويرى حقيقته. هل كان عليّ أن أبدأ كل شيء من جديد؟ فعلا. ولكن من أين؟ من نفسي؟ وبقدر ما كان سهلا قول هذا كان التنفيذ صعبا. أين كنت؟ من كنت؟ متى كانت المرة الأخيرة التي كنت فيها نفسي؟

وكما قلت لك، كنت أتجول فترات ظهيرة كاملة في الهضبة العليا. وأحيانا وعندما كنت أشعر بأن الوحدة زادت من سوء حالتي النفسية، كنت أنزل إلى المدينة، وكنت أختلط بين الجموع وأسير ذهابا وإيابا في الطرقات الأكثر شهرة بحثا عن نوع من الراحة. أصبحت كأنني أعمل، كنت أخرج عندما يخرج أوجوستو، وأعود عندما يعود. وقد كان الطبيب الذي يعالجني

قد قال له إنه في بعض حالات الاضطراب النفسي من الطبيعي أن تكون هناك الرغبة في الحركة الشديدة. ونظرا إلى أنه لم تكن بداخلي أفكار انتحارية، لم يكن من الخطر تركي أجري في الجوار، فبالجري المستمر. وفق رأي الطبيب. سأهدأ في النهاية.

وقبِل أوجوستو تفسيره، لا أعلم إذا كان صدقه بالفعل أم كانت بداخله فقط رغبة في السكون والهدوء في الحياة؟ على كل حال، كنت ممتنة له لبعده هذا لأنه لم يعق قلقي الشديد.

وعلى كل حال كان الطبيب على حق في شيء ما، أن هذا الاضطراب العصبي لم يكن يحوي أفكارا انتحارية. وهو شيء غريب لكنه كان هكذا فعلا، فلم أفكر ولو للحظة واحدة بعد وفاة أرنستو في الانتحار، ولا تتوقعي أن السبب في امتناعي هذا هو وجود إيلاريا.

فقد قلت لك، إنها منذ تلك اللحظة لم تعد ذات أهمية لي على الإطلاق، ولكن في جزء ما بداخلي كنت أشعر بأن تلك الخسارة المفاجئة لم تكن. ولا يجب أن تكون، ولا يمكن أن تكون. هدفا في حد ذاتها. فلا بد أن هناك معنى وراء ذلك، وهذا المعنى كنت أراه أمامي على هيئة درجة سلم عملاقة. هل كانت موجودة لأتخطاها؟ ربما، ولكنني لم أنجح في أن أتخيل ماذا يمكن أن تخفي وراءها، وماذا سأرى إذا تسلقتها.

وذات يوم وصلت بالسيارة إلى مكان لم أذهب إليه من قبل، كان كنيسة صغيرة حولها مدفن صغير، وعلى جانبي الهضاب المغطاة بالأشجار، وعلى قمة إحدى تلك الهضاب كانت تظهر

قمة واضحة لقلعة صغيرة. وبالقرب من هناك، من الكنيسة، كان هناك منزلان أو ثلاثة منازل ريفية، وكانت الدجاجات تتجول بحرية في الطرقات، وكان هناك كلب أسود ينبح. وعلى اللافتة كان مكتوبا ساماتورتزا. ساماتورتزا كان جرس الكلمة يشبه كلمة «سوليتوديني» أي «وحدة»، المكان المناسب حيث يمكن تجميع الأفكار. ومن هناك كان يبدأ مدق به حصى، وبدأت أسير من دون أن أسأل نفسي إلى أين سيأخذني. وكانت الشمس على وشك الغروب ولكنني كلما كنت أتقدم إلى الأمام كانت رغبتي في التوقف تقل، وكان هناك طائر مغرد يجعلني أرتجف من حين إلى آخر. كان هناك شيء ما يدعوني للتقدم، وفهمت هذا الشيء فقط عندما وصلت إلى مكان مفتوح مملوء بالأشجار، عندما رأيت هناك في الوسط شجرة بلوط ضخمة تقف بوداعة وعظمة بفروعها المفتوحة كأنها أذرع مستعدة لاستقبالي، من الغريب قول هذا، ولكن بمجرد أن رأيتها بدأ قلبي يدق بطريقة مختلفة، بل أكثر من ذلك كان يرفرف، كنت أبدو كحيوان مسرور، وكان يدق بهذه الطريقة فقط عندما كنت أرى أرنستو. جلست أسفلها، ربّت عليها، وأسندت ظهري وعنقي إلى جذعها.

«Gnosei Seauton» هكذا كتبت وأنا صغيرة على غلاف كراسة اللغة اليونانية. عند قدمي شجرة البلوط عادت فجأة إلى ذاكرتي تلك العبارة المدفونة في الذاكرة، «اعرف نفسك» وتنفست الصعداء.

16 ديسمبر

فــي هذه الليلة ســقطت الثلــوج، لم أكد أســتيقظ حتى رأيت كل الحديقــة بيضــاء. كان بوك يجري في المرعــى كالمجنون، كان يقفز وينبح، يأخذ فرع شجرة في فمه ويلقي به في الهواء. وبعد ذلك جاءت مدام رازمان لزيارتي، شربنا القهوة، ودعتني لنقضي ليلــة الميلاد معا. وســألتني قبل أن تنصــرف: «ماذا تفعلين طوال الوقت؟»، رفعت كتفي وأجبتها: «لا شــيء، أشاهد التلفزيون تارة، وأفكر تارة أخرى». ولم تســألني مطلقا عن أي شــيء عنك، كانت تدور حول الموضوع بحرص، ولكن من نبرة صوتها كنت أفهم أنها تعتبرك ناكرة للجميل. كانت كثيرا ما تقول في وسط حديث ما: «الشــباب لا قلب لهم، لم يعد لديهم الاحترام الذي كان موجودا في وقت ما». ولأجعلها تتوقف عن الاســترســال في الحديث كنت أتثــاءب، ولكننــي كنــت مقتنعة بداخلي أن القلب هو نفســه منذ الأزل، ولكــن النفاق هو الذي أصبــح أقل، وهذا لب الموضوع. فإن الشــباب ليســوا أنانيــين بطبعهم، وكذلك الشــيوخ أيضا ليســوا عقلاء بطبيعتهم. فالتفهم والسطحية لا ينتميان إلى السن بل إلى المســيرة التي يقوم بها كل إنســان. ففــي مكــان ما لا أتذكره، قــرأت منــذ فترة حكمة لهنود أمريكا كانــت تقول: «قبل أن تحكم

علـى شـخص سـر لمدة ثلاثـة أشـهر وأنت ترتـدي حـذاءه». وقد أعجبتنـي هـذه الحكمة بشـدة حتى أنني لكي لا أنسـاها كتبتها فـي المفكـرة القريبة مـن الهاتف. فإذا نظرنا من الخارج سـتبدو لنا كثير من نماذج الحياة خاطئة، غير معقولة، مجنونة. فمادام كان الإنسان يقف بعيدا، وينظر من الخارج، من السهل أن يسيء فهم الأشخاص، وعلاقاتهم. ولكن عند النظر من الداخل، فقط مـن خلال السـير ثلاثة أشـهر مرتديا حذاءهم يمكنـه أن يفهم أسـبابهم.. مشـاعرهم.. والشـيء الـذي يدفـع الإنسـان إلـى أن يتصـرف بطريقة ما بدلا من طريقة أخرى. إن التفهم يولد من التواضع وليس من غرور المعرفة.

من يدري إذا كنت سـترتدين خُفّي بعد قراءتك هذه القصة؟ أتمنى ذلك، أتمنى أن تسيري به من غرفة إلى أخرى، وأن تدوري أكثر من مرة حول الحديقة، من شجرة البندق إلى شجرة الكرز، ومن شـجرة الكرز إلى الزهرة، ومن الزهرة إلى أشـجار الصنوبر السـوداء السـخيفة الموجـودة في نهايـة الحديقـة. أتمنى ذلك، ليس لأتوسـل رحمتـك، وليس لأحصل على الغفـران بعد فوات الأوان، ولكن لأن هذا مهم لك، لمسـتقبلك. أن يدرك الإنسان من أين أتى، وماذا كان وراءه، إنها الخطوة الأولى لأن يستمر من دون خداع.

هـذا الخطـاب كان علـيّ كتابته لوالدتـك ولكننـي أكتبه لكِ أنـتِ. وإذا لـم أكن قـد كتبته مطلقا فكان وجودي سـيكون مجرد فشـل. إن ارتكاب الأخطاء شـيء طبيعي، لكـن أن نرحل من دون فهمها فذلك يجعل معنى الحياة تافها. إن الأشـياء التي تحدث

ليست بالتأكيد هدفا في حد ذاتها، أو مجانية، فكل مقابلة، وكل حدث صغير يحمل في طياته معنى، وفهمنا لأنفسنا ينبع من استعدادنا لاستقبال هذا المعنى، ومن قدرتنا في كل لحظة على أن نغير اتجاهنا، وترك جلدنا القديم مثلما يفعل التمساح مع تغير الفصول. إذا كنت في ذلك اليوم وفي سن الأربعين تقريبا لم أكن قد تذكرت تلك العبارة المكتوبة في كراسة اليوناني، وإذا لم أكن حينئذ قد وقفت وقفة قبل أن أسير إلى الأمام من جديد، لكنت داومت على تكرار الأخطاء نفسها التي ارتكبتها حتى هذه اللحظة. فلكي أطرد ذكرى أرنستو كان يمكنني العثور على عشيق آخر، ثم آخر، وعشيق آخر أيضا، وذلك بحثا عن نسخة منه، في محاولة مني لتكرار ما عشته بالفعل ولكنت جربتهم بالعشرات. فلم يكن من الممكن لأحد أن يكون مماثلا للأصل، وكلما شعرت بعدم الرضا كنت سأستمر، وربما كنت عندما سأصبح بالفعل عجوزا سخيفة كنت سأحيط نفسي بالشباب. أو ربما كان سيمكنني كراهية أوجوستو، فوجوده - في الواقع - لم يمكنني من اتخاذ قرارات أكثر حسما. أتفهمين؟ إن العثور على مخرج عندما لا نريد الدخول إلى ذواتنا هو أسهل شيء في العالم. فهناك دائما خطأ خارجي.

ولكن من الضروري جدا أن نتحلى بالشجاعة، حتى نقبل أن الخطأ- أو من الأفضل أن نقول- المسئولية هي مسئوليتنا نحن فقط. وهذه - كما سبق وقلت لك - هي الوسيلة الوحيدة للتقدم. فإذا كانت الحياة هي طريق، فهذا الطريق يصعد دائما إلى أعلى.

فـي ســن الأربعين، أدركـت من أين أبـدأ، ولكي أفهـم أين أريد الوصول، كان طريقا طويلا مملوءا بالعقبات، ولكن كان ممتعا.

أتعلمــين، حاليــا أرى وأقرأ مــن خلال التليفزيـون والصحف عــن هذا التكاثر في عدد الدعاة الدينيين، وعن العشــرات الذين يتبعــون أقوالهــم. يخيفنــي كثيــرا ازدياد عــدد هــؤلاء المعلمين، والطرق التي يقترحونها للعثور على السلام الداخلي، والتناغم العالمي. إنها مؤشرات عن فداحة الضياع العام.

فالواقــع أننــا فــي نهاية الألـف الثانيــة، حتــى إن كانت تلك المعطيــات تنبــع مــن اعتقــاد فعلــي، فهــي أيضــا تثيــر المخاوف، فالجميع في انتظار أن يحدث شــيء رهيب، ويريدون الاستعداد، ولذلــك يذهبون إلــى الحكماء، ويســجلون أنفســهم في مدارس للعثور على الذات.

إن المعلم الوحيد الموجود، المعلم الوحيد الحقيقي الذي يمكن تصديقــه هو ضميرنــا. وللعثور عليه يجــب أن نمكث وحدنا في صمت على الأرض العارية، عرايا، متجردين من كل شيء حولنا، كأننا بالفعل أموات.

في البداية لن تســمعي شيئا، ستشعرين فقط بالرعب. ولكن بعــد ذلــك - فــي العمق - وعندمــا تبتعدين، ســيصل إلى أذنيك صوت، صوت هادئ، ربما يغضبك في البداية لتفاهته.

شيء عجيب، فعندما تنتظرين أن تستمعي إلى أعظم الأشياء تظهر أمامك الأشــياء الصغيرة، تجدينها صغيرة جدا وواضحة جــدا، إلى حد يجعلك ترغبين في الصراخ: «ولكن كيف، هل هذا كل ما في الأمر؟!».

سيقول لك الصوت: «إذا كان للحياة معنى، فهذا المعنى هو الموت، وكل الأشياء الأخرى تلتف حوله فقط». ياله من اكتشاف جميل. ستعقبين على ذلك بأنه اكتشاف رائع مخيف، إن حتمية الموت هي شيء يدركه أتفه إنسان. هذا حقيقي، فكلنا نعرف ذلك بعقولنا، لكن معرفته بقلوبنا أمر آخر مختلف تماما.

عندما كانت أمك تهاجمني بعنف بكبريائها، كنت أقول لها: «إنك تتعبين قلبي»، كانت تضحك وتجيبني: « لا تكوني سخيفة، إن القلب هو عضلة، إذا لم تجرِ لن تؤلمك».

مرات عديدة حاولت التحدث معها عندما أصبحت بالفعل كبيرة لتفهم، حاولت أن أشرح لها المسيرة التي أبعدتني عنها، كنت أقول لها: حقا، لقد أهملتك في فترة ما من طفولتك، لقد كنت مريضة بمرض خطير وربما لو كنت داومت على الاعتناء بك في أثناء مرضي لكان ذلك سيكون أسوأ. كنت أقول: «أنا الآن بخير، يمكن أن نتحدث عن ذلك، نتناقش، نبدأ من جديد»، ولكنها لم تكن تريد أن تعرف شيئا عن هذا، كانت تقول: «الآن أنا المريضة»، وكانت ترفض التحدث. كانت تكره السعادة التي أنا على وشك الوصول إليها، وكانت تفعل المستحيل لتفسدها، ولتجذبني بداخل جحيمها الصغير اليومي.

قررت أن تكون حالتها الدائمة هي التعاسة. تقوقعت على نفسها حتى لا يتمكن أي شيء من أن يحجب الفكرة التي كوّنتها عن حياتها. من المؤكد أنها عقلانيا كانت تقول إنها ترغب في أن تكون سعيدة، ولكنها في الحقيقة. في العمق. في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة كانت قد أغلقت أي احتمال للتغيير.

وبينما كنت أنا أنفتح على بعد مختلف كانت هي تمكث هناك بلا حراك، ويداها موضوعتان فوق رأسها في انتظار أن تسقط الأشياء فوقها. وكان هدوئي الجديد يثير غضبها، وعندما كانت ترى الأناجيل فوق المائدة بجوار فراشي كانت تقول لي: عن أي شيء تريدين التعزية؟

عندما توفي أوجوستو، لم ترغب حتى في حضور جنازته. ففي سنواته الأخيرة كان قد أصيب بنوع قوي من تصلب الشرايين، كان يدور في المنزل وهو يتحدث كطفل، ولم تكن تتحمله. كانت تصرخ بمجرد أن يظهر وهو يرتدي خفه على باب إحدى الغرف: «ماذا يريد هذا الشخص؟».

وعندما توفي كان عمرها ستة عشر عاما، ومنذ أن كانت في الرابعة عشرة توقفت عن أن تناديه بأبي. وقد توفي في المستشفى في ظهيرة أحد أيام شهر نوفمبر. كنت معه في الغرفة، لم يكن يرتدي بيجامته بل قميصا أبيض مربوطا في ظهره بشرائط. وكانت المرحلة السيئة قد انتهت كما قال الأطباء. كانت الممرضة قد أحضرت توا العشاء عندما قام هو فجأة كأنه رأى شيئا، وتقدم ثلاث خطوات تجاه النافذة وقال بنظرة قاتمة: «إن يدَي إيلاريا ليست كيدَي أي شخص في العائلة»، ثم عاد إلى فراشه وتوفي.

نظرت خارجا من النافذة، كانت الأمطار تتساقط بغزارة. ربّتّ على رأسه. لمدة سبعة عشر عاما، ومن دون أن يظهر أي شيء، احتفظ بهذا السر في داخله.

منتصف النهار الآن، ظهرت الشمس وبدأ الثلج في الذوبان. وفي المرعى الذي يقع أمام المنزل بدأت تظهر الحشائش الصفراء

متفرقة، ومن فوق فروع الأشــجار تتســاقط قطرات المياه، واحدة تلو الأخرى. شــيء غريــب، ولكن بوفاة أوجوســتو أدركت أن الموت فــي حد ذاته لا يســبب الألم، بل يســبب فراغا مفاجئــا. والفراغ متســاو دائما، ولكن هذا الفراغ يتخذ كل ما لم نُصرح به أشــكالا مختلفــة، ويصبــح ملموســا في هذا الحيز بل يتســع، بــل يزداد اتســاعا. إنه فراغ لا أبواب له ولا نوافذ، فراغ بلا مخرج، وما بقي معلقــا، يبقى هنــاك معلقا إلى الأبد، يبقى فوق رأســك، حولك ويسبب ارتباكك كالضباب الكثيف.

إن فكرة معرفة أوجوســتو بحقيقــة إيلاريا، وأنه لم يقل ذلك مطلقــا ألقــت بي في حــزن عميق. فكم كنــت أود.أن أتحدث معه عن أرنســتو، عن أهميته بالنســبة إليّ، كنت أتمنى أن أحدثه عن إيلاريا، كنت أريد أن أتناقش معه في أشــياء عديدة ولكن لم يعد هذا ممكنا. ربما الآن يمكنك أن تفهمي ما قلته لك في البداية؟ إن الموت ثقيل ليس بســبب الفراق ولكن بســبب ما لم يُقل بينهم وبيننا. وتكرر الذي حدث لي بعد موت أرنستو، بعد موت أوجوستو أيضــا بحثت عن تعزيــة في الدين. وكنت قبلها بقليل قد تعرفت على كاهن يسوعي ألماني، كان يكبرني ببضعة أعوام فقط. عندما أدرك ضيقي من الممارســات الدينية، اقترح عليّ بعد عدة لقاءات أن نتقابل في مكان مختلف عن الكنيسة.

ونظرا إلى أننا كنا نحب السير، قررنا أن نتنزه معا. كان يأتي ليصطحبنــي كل أربعــاء في الظهيــرة وهو يرتدي حــذاء الجبل ويحمــل حقيبة قديمة على ظهره، كان وجهه يعجبني جدا، فقد كان وجهه نحيفا وجادا كوجه رجل نشــأ بين الجبال. في البداية

كان كونــه كاهنا يخيفني، وكل شـــيء كنــت أقصه عليه كنت أقص نصفه فقط، كنت أخشــى أن أتســبب في فضيحة، أن أجلب على نفسي الإدانة، أو الأحكام القاسية.

ثم في أحد الأيام، وبينما كنا نســتريح جلسنا فوق صخرة، قــال لــي: «إنك تؤذين نفســكِ، أتعلمين، نفســكِ فقط». ومنذ تلــك اللحظة توقفت عن الكذب، فتحــت له قلبي بطريقة لم أفعلها من قبل مع أحد منذ وفاة أرنســتو. وفي أثناء حديثي المستمر نسيت على الفور أنني أمام رجل دين. وبخلاف الكهنة الآخريــن الذيــن قابلتهــم، لــم يكن يعــرف كلمــات الإدانة ولا كلمــات العــداء، وكل الكلمــات العذبة لأكثر الرســائل المعروفة كانت غريبة عنه. كان به نوع من القسوة والتي كانت تبدو لأول وهلــة مخيفة، كان يقول: «الألم وحده هو الذي يســبب النمو، ولكــن يجــب أن تتم مواجهته، مــن يتهرب منــه أو يحزن على نفسه مُقدر له الضياع».

يفوز، يخسر، تلك المصطلحات الحربية التي كان يستخدمها كانــت تفيــد في وصــف صراع خفــي، داخلــي. فهو يــرى أن قلب الإنســان مثل الأرض، جزء تضيئه الشــمس، والجزء الآخر غارق في الظلام. حتى القديســون لم يكن لديهم الضوء الكامل. كان يقول: «إننا ببســاطة، بســبب وجود الجســد، مازلنــا في الظلام، فنحن مثل الضفادع برمائيون، جزء منا يعيش هناك في أسفل، والجزء الآخر يحاول أن يرتفع إلى أعلى. أن نعيش هو أن ندرك ذلــك فقط، وأن نعرفه، وأن نحــارب حتى لا يختفي النور متأثرا بالظلمة».

كنت أستمع إليه وأنا مبهورة، فلم أجد قط شخصا يعبر بطريقة جيدة هكذا عما كان يدور في داخلي منذ زمن من دون أن ينجح في الخروج. وبكلماته أصبح لأفكاري شكل واضح، وفجأة أصبح هناك طريق أمامي، والسير فيه لم يعد بالنسبة إليّ مستحيلا. ومن حين إلى آخر، كان يحضر في حقيبته بعض الكتب العزيزة عليه بصفة خاصة، وعندما كنا نتوقف كان يقرأ لي أجزاء منها بصوت واضح وقاس. ومعه اكتشفت صلوات الرهبان الروس، تسبحة القلب، وفهمت أجزاء من الإنجيل والكتاب المقدس، كانت حتى ذلك الوقت تبدو لي غامضة. في كل السنوات الماضية منذ وفاة أرنستو، كنت قد قمت بالفعل بمسيرة داخلية، لكنها كانت مقصورة على معرفتي بنفسي. في تلك المسيرة في لحظة ما وجدت نفسي أمام حائط، كنت أعلم أنه خلف ذلك الحائط يستمر الطريق أكثر إضاءة وأكثر اتساعا، لكنني لم أكن أعرف كيف يمكنني تخطيه. وذات يوم، وفي أثناء سقوط الأمطار فجأة، احتمينا في مدخل إحدى المغارات. سألته ونحن في الداخل: « ماذا يمكن أن يفعل المرء ليحصل على الإيمان؟»، «لا يفعل، بل الإيمان هو الذي يأتي، إنك بالفعل لديك إيمان، ولكن كبرياءك يمنعك من الاعتراف به، تطرحين أسئلة عديدة، تحولين الأشياء البسيطة إلى أشياء مركبة. إن رعبا شديدا يتملكك في واقع الحال. اتركي نفسك على طبيعتها، وما يجب أن يحدث سيحدث».

بعد تلك النزهات كنت أعود إلى المنزل أكثر اضطرابا، وأكثر زعزعة. كما قلت لك كان قاسيا وكانت كلماته جارحة. كثيرا ما

تملكتني الرغبة في ألا أراه مرة أخرى، في مساء الثلاثاء كنت أقول لنفسي الآن سأتصل به، وسأقول له ألا يأتي لأنني متوعكة، ولكنني لم أكن أحدثه. في ظهيرة الأربعاء كنت أنتظره في الميعاد تماما على الباب وأنا أحمل حقيبتي وأرتدي حذائي الرياضي. واستمرت رحلاتنا لأكثر من عام، ولكن نقله رؤساؤه من مهمته.

إن ما قلته هذا يمكن أن يجعلك تعتقدين أن الأب توماس كان رجلا فظا، أو أن نوعا من التحمس أو التعصب كان في كلماته، أو في رؤيته للعالم. مطلقا! فهو لم يكن هكذا، ففي العمق كان أكثر الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي هدوءا ووداعة، ولم يكن مجرد جنديا من جنود الله. وإذا كان هناك نوع من التصوف في شخصيته، فقد كان تصوفا ملموسا، وكان يرتكز على الأشياء اليومية. وكان يردد باستمرار «نحن هنا الآن». وعلى الباب سلمني مظروفا بداخله بطاقة بوستال لمنظر طبيعي لمراع جبلية. وكان مطبوعا فوقه باللغة الألمانية عبارة «ملكوت الله في داخلكم»، وفي الخلف وبخط يده كتب: «عندما تجلسين أسفل شجرة البلوط لا تكوني ذاتك بل كوني شجرة البلوط، وفي الغابة كوني الغابة، وفي المرعى كوني المرعى، وبين البشر كوني إنسانة».

إن ملكوت الله بداخلكم، أتتذكرين؟ لقد صدمتني تلك العبارة عندما كنت أعيش في أكويلا كعروس تعيسة. وقتها، عندما كنت أغلق عينيّ محاولة أن أنزل بنظري إلى الداخل لم أكن أنجح في رؤية أي شيء. بعد اللقاء مع الأب توماس تغير شيء ما، استمر عدم رؤيتي أي شيء، ولكن لم يعد هناك ذلك العمق، ففي عمق

هــذا الظلام بدأ يظهر وميض، ومن حــين إلى آخر ولثوان قليلة جــدا كنت أنجح في أن أنســى نفســي. كان ضوءا واهنــا، صغيرا، جذوة صغيرة، وكانت نفحة واحدة تكفي لإطفائها. ولكن حقيقة وجودهــا كانــت تعطيني راحة ولم يكن ما أشــعر به هو الفرح بل الســعادة. لــم تكــن هناك حيويــة أو تعظيم، لم أكن أشــعر بأنني أكثــر حكمــة، أو أكثــر علوا. ولكن ذلــك الذي كان ينمــو بداخلي كان مجرد إدراك سعيد بالوجود. مرعى في المرعى، شجرة بلوط أسفل شجرة البلوط، إنسانة وسط البشر.

وأنا أفتح الأكياس الموجودة في أحد الصناديق الضخمة وجدت أيضا الأشياء القليلة التي بقيت من طفولتي والتي نجت من سقوط المنزل. كانت نصف محروقة، هشة، أخرجتها كأنها رفات.

وكانت أغلب تلك الأشياء أدوات مطبخ: إناء للغسيل من الميناء، إناء سكر من السيراميك الأبيض والأزرق السماوي، بعض أدوات المائدة، قالب تورتة. وفي أسفل وجدت صفحات كتاب مفكك ومن دون غلاف. كتاب ماذا؟! لم أنجح في تذكر ذلك. ولكن عندما أخذته بلطف بين يديّ وبدأت في قراءة السطور الأولى، عاد كل شيء إلى ذهني وكان انفعالي به قويا جدا؟ لم يكن أي كتاب، بل كان أكثر كتاب أحببته وأنا طفلة، ذلك الذي جعلني أحلم أكثر من أي شيء آخر. كان اسمه «عجائب العام 2000»، وكان - بصورة ما - كتاب خيال علمي.

كانت القصة بسيطة إلى حد كبير، لكنها غنية بالخيال. ففيها يقوم عالمان من نهاية القرن التاسع عشر بتجميد أنفسهما حتى العام 2000، وذلك ليريا إذا كانت العجائب التي تنتج من التقدم ستؤدي غرضها.

وبعد قرن بالتمام يقوم حفيد أحد زملائهما - وهو عالم أيضا - بفك حالة تجمدهما هذه، ويقودهما لعمل جولة تعليمية حول العالم في طبق صغير. في هذه القصة لم يكن هناك رجال فضاء، أو سفن فضاء، كان كل الذي يحدث يتعلق فقط بمصير الإنسان، وبذلك الذي بناه بيده. وتبعا لما يقوله المؤلف، فإن الإنسان قد صنع أشياء كثيرة وكلها رائعة. لم

تعـد هنـاك مجاعات في العالـم ولا فقر، لأن العلم - بمسـاعدة التكنولوجيـا - وجـد الطريقـة التـي بهـا يخصـب كل بقعة في كوكب الأرض. والشيء الأكثر أهمية. وهي أنه فعل ذلك بطريقه تسـمح بـأن يقسـم هـذا الإنتـاج بطريقة متسـاوية بـين جميع السـكان. كان هناك كثير من الآلات تريح البشـر من ثقل العمل، وكان وقـت الفـراغ متوافرا للكثيرين، وهكذا كان كل كائن بشـري يسـتطيع أن يزرع أكثـر الأجزاء نبلا بداخلـه، وكانت تنطلق من كل جانب من جوانب العالم المعزوفات الموسـيقية، وأبيات الشعر، والأحاديـث الفلسـفية الهادئة والمثقفـة. وكأن كل ذلك لا يكفي، فبفضل الطبق الطائر كان يمكن الانتقال من قارة إلى أخرى في أقل من سـاعة. وكان يبدو على العالمين المسـنين كثير من الرضا، فقـد تحقق كل ما تمنياه بإيمانهما المتفائل. وأنا أتصفح الكتاب وجـدت أيضـا الصـورة المفضلة لـديّ، والتي فيها ينظـر العالمان السـمينان بفـرح- بلحيتيهمـا اللتـين علـى غرار لحيـة داروين، وكرشيهما المربعين- من الطبق الطائر إلى أسفل.

وللقضـاء على أي شـك، تجـرأ أحدهما وطرح السـؤال الذي كان يؤرقه بشـدة: « مـاذا عن الفوضويين، والثوريـين هل مازالوا موجودين؟!»، أجابهما مرشدهما وهو يبتسم: «بالتأكيد، يعيشون في مدينة خاصة بهم، مبنية أسفل ثلج القطبين، وهكذا إذا أرادوا السـباحة للذهـاب إلى الآخرين، لا يسـتطيعون ذلـك». عندئذ تبعـه الآخـر قـائلا: والجـيوش، كيـف لا يظهر ولا حتى جندي واحـد؟ أجـاب الشـاب: لم يعـد للجيـوش وجود. عندئـذ تنفس الاثنان السعداء، أخيرا عاد الإنسـان إلى طيبته الأصلية! ولكن

لم تستمر فرحتهما طويلا إذ قال لهما المرشد الشاب: «لا، ليس هذا هو السبب، إن الإنسان لم يفقد حبه للدمار، ولكنه تعلم فقط أن يتحكم في رغباته. فالجنود والمدافع والبنادق أصبحت أدوات قديمة. ففي الواقع بدلا من كل ذلك توجد قنبلة صغيرة لكنها قوية جدا، يعود إليها الفضل في عدم وجود الحروب. إذ إنه يكفي الصعود على جبل وتركها لتسقط من أعلى حتى يتحول العالم بأكمله إلى أمطار من الذرات والشظايا».

الفوضويون! الثوريون! كم من الكوابيس عانيت في طفولتي بسبب هاتين الكلمتين. بالنسبة إليك ربما يصعب عليك فهم ذلك، ولكن يجب أن تضعي في اعتبارك أنه عندما اندلعت ثورة أكتوبر كنت أبلغ من العمر سبع سنوات.

كنت أسمع الكبار يهمسون بأشياء فظيعة، وقالت لي إحدى زميلاتي في المدرسة إنه بعد وقت قليل سيهبط القوقازيون إلى روما - سان بيترو- وسيسقون خيولهم من الينابيع المقدسة. وتشبع الرعب الموجود بالطبع في ذاكرة الأطفال بتلك الصورة، وفي الليل وفي اللحظة التي كنت أستعد فيها للنوم، كنت أسمع ضوضاء حوافر خيولهم تجري في الأسفل قادمة من البلقان. من كان يتخيل أن الرعب الذي رأيته كان سيكون مختلفا تماما عن هذا، أكثر رعبا من مجرد خيول تسير في شوارع روما! عندما كنت أقرأ هذا الكتاب وأنا طفلة كنت أقوم بعمل كثير من العمليات الحسابية حتى أفهم إذا كنت - في سني هذه - سأنجح في الوصول إلى العام 2000. وكان يبدو لي أن تسعين عاما هي سن متقدمة، ولكن ليس من المستحيل الوصول إليها. وكانت

هـذه الفكرة تمنحني نوعا من النشـوة، شـعورا خفيـا بالتفاخر علـى كل أولئـك الذين لـن يصلوا إلى سـنة 2000. والآن ونحن علـى أعتـاب سـنة 2000، أعلم أنني لن أصل. هل أشـعر بالندم، بالحنين؟ لا، أشـعر فقط بتعب شـديد، فمن ضمن كل العجائب التـي أعلـن عنها الكتاب لم أر سـوى شـيء واحد أُنجـز، القنبلة الصغيرة جدا شديدة المفعول. لا أعلم إذا كان يحدث للجميع في آخر أيامهم أن يشـعروا بهذا الشـعور المفاجئ أنهم عاشوا طويلا جدا، وبأنهم رأوا الكثير جدا، وبأنهم شعروا بالكثير جدا.

لا أعلم إذا كان يحدث لإنسـان العصر الحجري مثلما يحدث الآن أم لا. في الواقع، عندما أفكر في القرن الذي عشـته تقريبا بأكمله ينتابني الشـعور أنه بطريقة ما أصبح الزمن يعاني نوعا من الاستعجال.

إن اليوم هو اليوم دائما، والليل مازال بطوله نسبة إلى اليوم. واليوم نسـبة إلـى الفصول، مازال كما هو مثلمـا كان في العصر الحجري. فالشمس تشرق وتغرب. وبدراسة علم الفلك، إذا كانت هنـاك فـروق، فهـي طفيفـة ومـع ذلك أشـعر الآن بأن كل شـيء يحـدث على عجل. التاريخ يجعل أشـياء كثيرة تحدث، يهاجمنا بأحـداث مختلفـة دائما، وفي نهاية كل يوم يشـعر المرء بأنه أكثر تعبـا، وفي نهاية حياة، يشـعر المـرء بأنه مسـتنزف. فكّري فقط في ثورة أكتوبر، في الشـيوعية! لقد رأيتها تظهر، ولم أنم الليل بسـبب البلشـفيين، لقد رأيتها تنتشـر في البلاد وتقسـم العالم إلـى جزأين، هنا الأبيض وهناك الأسـود، والأبيض والأسـود في صـراع فيما بينهما، وبسـبب هذا الصراع مكثنـا جميعا بأنفاس

معلقـة، فهناك القنبلة، سـقطت بالفعل ولكن يمكن أن تسـقط مرة ثانية في أي وقت.

ثم، فجأة، في يوم مثل كل الأيام، فتحت التليفزيون ورأيت أن كل هذا لم يعد موجودا، سقطت الحوائط، والشبكات والتماثيل، وفـي أقل من شـهر تحولت مدينة القـرن الفاضلة إلى ديناصور، يقف في وسط صالة عرض، ويمر الجميع من أمامه ويقولون كم كان عظيما، أو كم كان رهيبا!

أتحـدث عـن الشـيوعية، ولكـن كان يمكنني التحـدث عن أي شـيء آخـر، فقد مـرت أمام عينـيّ أشـياء عديدة جـدا، ومن كل هذه الأشـياء العديدة لم يبق شـيء. أتفهمـين الآن لماذا أقول إن الوقـت أصبـح أكثر سـرعة؟ في العصر الحجري مـاذا كان يمكن أن يحدث خلال حياة إنسـان؟ مواسـم الأمطار، مواسـم الجليد، موسـم الشـمس وهجوم بعض الجراد، بعض المناوشـات الحربية العنيفة مع بعض الجيران الكريهين، أو ربما وصول نيزك صغير بذيلـه الناري. فإلى جانب حقلـه، وإلى جانب النهر لم يعد لأي شيء آخر وجود، فإن الجهل باتساع العالم كان يجعل الزمن أكثر بطئا.

وعلـى ما يبدو كان الصينيون يقولون فيما بينهم: «نتمنى أن تعيش أعواما مثيرة». هل هي أمنية حسنة؟ لا أعتقد ذلك، فهي تبـدو لـي كلعنة أكثر من كونهـا أمنية. فالأعـوام المثيرة هي أكثر الأعوام قلقا، تلك التي فيها تحدث أشياء عديدة.

لقد عشت أنا أعواما مثيرة جدا، لكن تلك التي ستعيشينها أنـت سـتكون أكثـر إثـارة. إن تغيـر ألف عـام يبدو أنـه يحمل

دائمـا معه دويا عظيمـا، حتى إن كان ذلـك اعتقادا تنجيميا بحتـا. فـي الأول مـن يناير سـنة 2000 ستسـتيقظ الطيور فوق الأشـجار فـي التوقيت نفسـه ليوم 31 ديسـمبر 1999، وسـتغرد بالطريقة نفسـها، وبمجـرد أن تنتهي مـن التغريد، سـتذهب للبحـث عن طعامهـا كما فـي اليوم السـابق. ولكن بالنسـبة إلى البشـر سـيكون كل شـيء مختلفا. ربما، إذا كان العقاب المتوقع لن يكون قد حدث، سـينهمكون بكل عزيمتهم لبنـاء عالم أفضل. هل سـيكون الأمر هكـذا؟ ربما، ولكن ربما لا يحـدث هـذا أيضـا. فـإن العلامـات التي اسـتطعت رؤيتها حتـى الآن مختلفـة، وجميعهـا متناقضـة فيمـا بينها. ففي يـوم يبدو الإنسـان لي مجرد قـرد كبير تحكمـه غرائزه، لكنه للأسف يستطيع أن يدير آلات دقيقة جدا وشديدة الخطورة، ولكن في اليوم التالي يكون لديّ الانطباع بأن المرحلة الأسوأ قـد انتهـت، وأن الجـزء الأفضل من الروح قد بـدأ بالفعل في الظهـور. أي مـن التوقعـات سـيتحقق؟ مـن يـدري. ربما ولا واحـد، ربمـا يحدث حقا في الليلة الأولـى من عام 2000، أن تسـقط السـماء. لتعاقب الإنسان على غبائه، وعلى الطريقة الخاليـة من الحكمـة التي أضاع بها قوته. أمطارا بشـعة من النيران والحمم البركانية على الأرض.

في العام 2000 ستكونين قد بلغت للتو الرابعة والعشرين من عمرك، وسترين كل هذا، أما أنا فسأكون بالفعل قد ذهبت وأخذت معي في قبرى فضولي هذا الذي لم يتم إشـباعه. هل سـتكونين مستعدة، هل ستكونين أهلا لتواجهي الأزمنة الجديدة؟

إذا هبطت الآن الجنية الطيبة من السماء وطلبت مني أن أعبر عن ثلاث أمنيات، أتعلمين ماذا سأطلب منها؟ سأطلب منها أن تحولني إلى سنجاب، أو إلى عصفور، أو إلى ضفدعة منزلية، إلى أي شيء يمكن - حتى إن لم يكن مرئيا - أن يعيش بجوارك. لا أعلم ماذا سيكون مستقبلك، لا أستطيع تخيله، ونظرا إلى أنني أحبك كثيرا، فأنا أتألم بشدة لأنني أعرف من المرات القليلة التي تحدثنا فيها أنك لم تكوني ترينه ورديا مطلقا، فبالأحكام المطلقة لسن المراهقة كنت مقتنعة بأن التعاسة التي طاردتك حينذاك، ستطاردك إلى الأبد. ولكنني مقتنعة بالعكس تماما، ستتسائلين، لأي سبب، ما العلامات التي جعلتني أفكر في هذه الفكرة المجنونة؟ إنه بوك يا حبيبتي، دائما- وفقط - من أجل بوك، لأنك عندما اخترته من محل بيع الحيوانات، كنت تعتقدين أنك اخترتِ فقط مجرد كلب من ضمن كلاب أخرى.

في تلك الأيام الثلاثة في الحقيقة، قامت بداخلك حرب ضارية، شديدة الحسم، فبين صوت ما هو ظاهر وصوت قلبك، اخترتِ - من دون أي شك ومن دون أي تردد - صوت قلبك. إذا كنت في سنك هذه كان يمكنني أن أختار جروا رقيقا وأنيقا، كنت سأختار أكثرها نبلا ورائحة زكية، جرو أذهب وأتنزه معه ليحسدني الجميع . فكان عدم الأمان، والوسط الذي كبرت فيه قد سلماني بالفعل لطغيان المظهر الخارجي.

21 ديسمبر

من ذلك البحث الطويل في السقفية بالأمس لم أحضر معي فـي النهاية سـوى المغارة وقالـب التورتة الذي نجـا من الحريق، ستقولين حسنا على المغارة فنحن في فترة عيد الميلاد، ولكن لماذا قالـب التورتـة؟ هذا القالب كان ملكا لجدتـي أيْ جدتك الثالثة وهو الشـيء الوحيـد المتبقي من كل تاريخ النسـاء فـي عائلتنا. ويمكوثـه الطويـل فـي غرفـة السـطح أصابـه الصدأ الشـديد، فأخذته على الفور إلى المطبخ وفي الحوض - مسـتخدمة اليد السـليمة وأدوات النظافـة المناسـبة - حاولـت تنظيفـه. تخيلي كـم من المرات خـلال فترة وجوده دخل الفرن وخـرج، كم رأى من الأفـران المختلفـة والحديثة دائمـا. كم من الأيـادي المختلفة أو المتشـابهة ملأته بالعجين. أخذته إلى أسـفل لأحييه مرة أخرى، حتـى تسـتخدميه وحبذا لو تركته أنت بـدورك لبناتك، لأنه في تاريخه هذا كأداة متواضعة يلخص ويذكر تاريخ أجيالنا.

بمجـرد أن رأيتـه في نهاية الصندوق الكبير عادت إلى ذاكرتي المـرة الأخيرة التـي كنا فيها على وفاق معـا. متى كان هذا؟ منذ عـام مضى، ربما أكثر قليلا مـن عام. ففي بداية الظهيرة دخلت مـن دون أن تطرقـي باب حجرتي، وكنت أنا أسـتريح ممددة على

فراشي وأنا واضعة يدي فوق صدري، وبمجرد أن رأيتني هكذا انفجرت في البكاء من دون تماسك. وأيقظني صوت نحيبك، وسألتك وأنا أجلس: «ماذا حدث؟»، أجبتِ وأنت تبكين بقوة أكثر: «ماذا حدث؟ الذي حدث هو أنه بعد قليل ستموتين»، قلت لك وأنا أضحك: «يا إلهي، نتمنى ألا يكون ذلك قريبا جدا»، ثم أضفتُ: «أتعلمين ماذا؟ سأعلمك شيئا ما: شيء أعرفه أنا ولا تعرفينه أنت، وهكذا عندما لا أكون موجودة تصنعينه وتتذكرينني».

نهضتِ وألقيتِ بذراعيك على عنقي وقلت لك لأذيب التأثر الذي بدأت أشعر به أنا أيضا: «إذن ماذا تريدين أن أعلمك صنعه؟»، فكرت قليلا وأنت تجففين دموعك ثم قلت: «تورتة».

وهكذا ذهبنا إلى المطبخ وبدأنا معركة طويلة. أول شيء رفضتِ ارتداء مريلة المطبخ، وكنت تقولين: «إذا ارتديتها سيكون عليّ أيضا ارتداء بنس الشعر والخف، يا للبشاعة! ثم أمام الدقيق الذي يجب عجنه وتحويله إلى عجينة هشة بدأت تشكين من ألم في معصمك، وكنت تغضبين لأن السمن لا يندمج مع صفار البيض، ولأن الفرن لم يكن ساخنا بدرجة كافية. وفي أثناء لعق المضرب الذي قمت بضرب الشيكولاتة به، تلوّن أنفي باللون البني.

وعندما نظرتِ إليّ انفجرتِ في الضحك وقلت لي: «ألا تخجلين في سنك هذه؟ إن أنفك بني مثل أنف الكلب!».

ولنصنع تلك الحلوى البسيطة استغرق ذلك الظهيرة كلها، وأصبح المطبخ في حالة يرثى لها، وفجأة نشأت بيننا خفة عظيمة، فرح مبني على المشاركة. فقط وعندما دخلت التورتة

أخيـرا إلى الفرن، وعندمـا رأيتِها وهى تتلون رويـدا رويدا خلف الزجاج تذكرتِ لماذا صنعناها، وبدأتِ من جديد في البكاء، وأمام الفـرن حاولـت أن أهـدئ مـن روعـك. قلت لـك: «لا تبكـي، حقا أنني سـأموت قبلك، ولكـن عندما أختفي، سـأعيش في ذاكرتك مـع الذكريات الجميلة، سـترين الأشـجار، والبسـتان والحديقة وسـتأتي إلى ذاكرتك كل اللحظات السـعيدة التي عشـناها معا. والشـيء نفسه سيحدث لك إذا جلست على مقعدي الوثير، وإذا صنعتِ التورتة التي علمتك إياها اليوم، سـترينني أمامك بأنف بني اللون».

22 ديسمبر

اليوم، بعد الإفطار، ذهبت إلى الصالون وبدأت في إعداد المغارة في مكانها المعتاد، بقرب المدفأة. أولا نظمت الورق الأخضر، ثم أجزاء الطحالب الجافة، وسعف النخيل، ثم الكوخ وبداخله القديس يوسف والعذراء، الأبقار والأتان، ووزعت حولهما جموع الرعاة، السيدات ومعهن أوزاتهن، العازفين، الخنازير ، الصيادين، الديوك والدجاج، المعز والخرفان. وبالشريط اللاصق فوق المنظر الطبيعي وضعت ورقة السماء الزرقاء، والنجم المذنب في الجانب الأيمن من الغرفة، وفي الجانب الأيسر وضعت المجوس الثلاثة، ثم ذهبت إلى الجهة المقابلة من الغرفة وعلقت النجمة فوق الدولاب، وفي أسفل، على مسافة قريبة، وضعت قافلة الملوك والجمال.

أتتذكرين؟ عندما كنت طفلة، وبالاندفاع القوي للترابط المنطقي الذي يميز الأطفال، لم تكوني تتحملين أن تكون النجمة ومعها الملوك الثلاثة موجودين من البداية بقرب المغارة. كان يجب أن يمكثوا بعيدا وأن يتقدموا رويدا رويدا، النجمة تسبق قليلا وخلفها مباشرة الملوك الثلاثة. وعلى هذا المنوال لم تكوني تتحملين أن يكون تمثال الطفل يسوع في المذود قبل

الأوان، وهكذا كنا نجعله يهبط من السماء إلى المذود في منتصف ليل اليوم الرابع والعشرين تماما. وبينما أنظم الخرفان فوق بساطها الأخضر الصغير، تذكرت شيئا آخر كنت تحبين عمله بالمغارة، لعبة كنت قد اخترعتِها أنتِ، ولم تتعبي قط من تكرارها.

وأعتقد أنك في البداية لكي تصنعي هذه اللعبة كنت متأثرة بعيد القيامة. لأنه في أثناء عيد القيامة كنتُ معتادة أن أخبئ لك البيض الملون في الحديقة. ولكن لعيد الميلاد كنت تخبئين الخرفان بدلا من البيض، ففي أثناء غفلتي كنت تأخذين الخرفان من القطيع وتضعينها في مكان مستبعد تماما، ثم تلحقين بي حيث أكون وتبدئين في الثغو بصوت يائس. عندئذ كانت تبدأ عملية البحث، كنت أترك ما أقوم به وأبدأ التجول في المنزل. وأنت خلفي تضحكين وتثغين. وأنا أقول: «أين أنت أيتها النعجة الصغيرة المختفية؟ اجعليني أعثر عليكِ لأنقذك؟».

الآن يا نعجتي الصغيرة، أين أنت؟ إنك هناك الآن بينما أنا أكتب إليك، هناك بين ذئاب أمريكا الشمالية وأشجار الصبار، تُرى عندما تبدئين في قراءة هذا لأي سبب ستكونين هنا؟ وهل ستكون أشيائي قد انتقلت إلى السقفية؟ وهل ستقودك كلماتي هذه إلى الخلاص؟ لا أتوقع ذلك، ربما تسببت فقط في إثارة غضبك، وربما تؤكد أيضا الفكرة السيئة جدا التي أخذتها عني قبل رحيلك.

ربما ستتمكنين من فهمي فقط عندما تتقدم بك السن، سيمكنك عندئذ أن تفهميني إذا سرت في ذلك الطريق الغامض الذي يقود من التشبث إلى الرحمة. انتبهي جيدا، الرحمة،

وليس الألم. إذا شعرت بالألم، سأهبط مثل تلك الأرواح الشريرة وسأسبب لك كثيرا من الإزعاج. وسأفعل الشيء نفسه إذا أصبحتِ وضيعة بدلا من أن تكوني متواضعة، وإذا أسكرتِ نفسك بثرثرة فارغة بدلا من أن تلوذي بالصمت.

ستنفجر لمبات الإضاءة، وستطير الأطباق من فوق الأرفف، وسينتهي الأمر بملابسك الداخلية فوق النجفة، ولن أتركك في سلام لحظة واحدة، من الفجر حتى الليل. لا، ليس حقيقيا، لن أفعل شيئا، إذا كنت سأكون في مكان ما، وإذا كانت ستكون هناك وسيلة لرؤيتك، سأكون حزينة فقط، كما أنا حزينة في كل مرة أرى فيها حياة تقذف بعيدا، حياة لم تنجح فيها مسيرة الحب أن تكتمل.

أعتني بنفسك. وفي كل مرة أثناء نموك تنتابك الرغبة في أن تغيري الأشياء الخاطئة إلى أشياء صائبة، تذكري أن الثورة الأولى التي يجب القيام بها هي تلك الثورة بداخل أنفسنا، فهي الأولى والأكثر أهمية.

إن الصراع من أجل فكرة ما من دون أن تكون لدينا معرفة كافية عن أنفسنا من أكثر الأشياء خطورة.

في كل مرة تشعرين بالحزن، والاضطراب تذكري الأشجار. تذكري طريقتها في النمو، وتذكري أن الشجرة ذات الأوراق الكثيرة والجذور الضعيفة تُقتلع مع أول هبة رياح، بينما الشجرة ذات الجذور القليلة والأوراق القليلة يمكن أن تسقط بسهولة، فالجذور والأوراق يجب أن تنمو بمقياس متساو .

يجب أن تمكثي بداخل الأشياء وترتفعي فوقها في الوقت

نفســه، فقــط بهذه الطـريقة يمكن أن تكســوكِ الأزهــار والفاكهة في الموسم الصحيح.

وبعــد ذلــك عندما تُفتح أمامــك طرق كثيــرة ولا تعرفين أي الطــرق تتخذيــن، لا تســيري فــي أحدهــا مصادفة، بل اجلســي وانتظري. تنفسي بالعمق الواثق الذي به تنفست يوم جئت إلى الدنيا، ولا تجعلي أي شــيء يشــد انتباهك، انتظري ولتنتظري طويلا.

توقفــي، في هدوء، واســتمعي لقلبك. وعندمــا يتحدث إليك بعد ذلك، انهضي واذهبي حيث يقودك.

الترجمة في سطور

د. أماني فوزي حبشي

- ولدت العام 1968 القاهرة.
- حصلت على ليسانس اللغة والأدب الإيطالي من قسم اللغة الإيطالية، كلية الألسن، جامعة عين شمس العام 1990.
- حصلت على دبلوم الترجمة الفورية والتحريرية المعادلة للماجستير العام 1994.
- حصلت على شهادة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى في الأدب الإيطالي من كلية الألسن جامعة عين شمس العام 2002.
- حصلت على الجائزة الوطنية للترجمة العام 2002 من وزارة الثقافة الإيطالية على مجمل الأعمال المترجمة، تسلمتها من الرئيس الإيطالي تشامبي في مايو العام 2003.

من أعمالها:

1 - رواية «الفسكونت المشطور» 1994 ، نشرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة العام 2000 ، وأعاد المركز الثقافي نشرها العام 2004 كجزء من ثلاثية إيتالو كالفينو «أسلافنا».

2 - الجزء الأول من كتاب «فرانسيس فورد كوبولا» تأليف: فيتو زجاريو - إصدارات أكاديمية الفنون العام 1996.

3 - مسرحية «القبعة ذات الأجراس» تأليف: لويجي بيرانديللو، نشرتها أكاديمية الفنون العام 2003.

4 - كتاب «العبودية في العصر الحديث» تأليف: باتريسيا دلبيانو، نشرته دار كلمة العام 2012.

لها تحت الطبع: رواية «الكيلومتر الذهبي» تأليف: دانيال فيشرمان، تحت النشر لدى المركز القومي للترجمة. كتاب «خطابات ضد الحرب» تأليف: تيتزيانو تيرتساني، تحت النشر لدى المركز القومي للترجمة.

المراجع في سطور

د. أيمن عبدالحميد الشيوي

- مصري الجنسية، ولد العام 1965 في مقديشو - الصومال.
- حاصل على شهادة بكالوريوس الإعلام من جامعة القاهرة - قسم الإذاعة والتلفزيون العام 1986.
- حاصل على شهادة ماجستير في فنون المسرح العام 1998 بتقدير امتياز.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في «تاريخ ونظريات وتقنيات المسرح والعروض: تكنولوجيا الديجيتال الجديدة وتطبيقاتها» من جامعة روما - إيطاليا، العام 2005.
- من أعماله السابقة: عمل مخرجا بالقناة الثانية بالتلفزيون المصري. كما شارك بالتمثيل والإخراج في العديد من الأعمال الدرامية التلفزيونية والسينمائية والمسرحية.
- كتب العديد من الأبحاث في مجال المسرح، من أهمها: المسرح يرتد إلى أصوله، والمسرح الرقمي: مشكلة الإبداع والتكنولوجيا.
- شارك في العديد من المهرجانات وحصل على جوائز أهمها جائزة مهرجان سيراكوزا، ومهرجان سيشيليا المسرحي بإيطاليا.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	أرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي، أندجي ماليشكا، ستانيسلاف ليم (ستانيسواف)، سوافومير مروجيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي

ما صدر من هذه السلسلة

374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ



سوزانا تامارو

- ولدت في تريستى بإيطاليا العام 1957.
- ألّفت ونشرت عدة روايات منها: «الرأس بين السحاب» 1989، «صوت وحيد» 1991، «اذهب حيث يقودك قلبك» 1994، «روح العالم» 1997، «أجبني» 2001، «إلى الأبد» 2011، ونشرت أيضًا بعض قصص الأطفال منها «القلب السمين».
- حازت رواية «اذهب حيث يقودك قلبك» نجاحا كبيرا، وتُرجمت إلى عدة لغات، ووزعت نحو 51 مليون نسخة، بل حولتها المخرجة كريستينا كومنشيني إلى فيلم العام 1996.
- حصلت على عدة جوائز أدبية منها جائزة إيطالو كالفينو العام 1989، وإيلسا مورانتي 1990، وجائزة شينتو العام 1995 وجائزة دانتى الذهبية من جامعة بوكوني العام 2013.
- في العام 2003، صوّت قراء مجلة «روايات مختارة» على أن تكون تيه نيدغ واحدة من أفضل عشرة كُتّاب في القرن العشرين في الصين.

اذهب حيث يقودك قلبك

في هذا العدد من سلسلة «إبداعات عالمية» تطرح الكاتبة الإيطالية سوزانا تامارو قضية صراع الأجيال عن طريق رسائل تكتبها سيدة مسنة لحفيدتها.

فأثناء تجولها في منزلها، ومع وجود رياح الكارسو اللاسعة في الخارج، في بداية الخريف، قررت تلك السيدة أن تكتب خطابا طويلا لحفيدتها التي سافرت إلى أمريكا للدراسة، وذلك خوفا من أن تعود ولا تجدها نظرا لإصابتها بمرض خطير.

وتحكي لها عن كل أحداث حياتها، تحكي لها من دون أن تخفي أي شيء، حتى إن بدت في ذلك كله قاسية وعديمة الرحمة .

تتحدث في خطابها عن طفولتها التي قضتها وسط التحفظات والاهتمام بالمظاهر، عن صعوبة عثورها على الإنسان المناسب، عن زواجها في النهاية من شخص ممل، عن العلاقة المتدهورة بينها وبين ابنتها الوحيدة التي أنجبتها نتيجة العلاقة السرية مع الرجل الوحيد الذي أحبته.

رقم الإيداع: 2014/058
ردمك: 978-99906-0-412-2

